من اسرار المنهج الرباني
عرض لطائفة من اهم الاحكام الشرعية
مقرونة ببيان اهم آثارها الاجتماعية

بقلم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافيء مزيده ، سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد على آله وصحبه أجمعين .

وبعد ، فهذه أحاديث صغيرة كنت قد كتبتها لأذاعة الكويت ، تحت عنوان : حكم وحكمة . قوام كل حديث منها ذكر حكم من أهم الأحكام الشرعية مستنداً الى دليله من القرآن والسنة ، ثم اتباعه بالحكمة والفائدة من مشروعيته .

وقد رغبت أن أنشر هذه الأحاديث ، تحقيقاً لرغبة بعض الأصدقاء ، بعنوانها الذي قدمت به الى الاذاعة .

ولكن الأخ الناشر أصر على تغييره ، نظراً لما لاحظه من الغموض في مدلوله ، وتحقيقاً لما رأى من رغبة كثير من الاخوة القراء في ذلك . فشرحته بعنوان آخر هو : " من أسرار المنهج الرباني " .

وقد حرصت على أن يأتي كل ذلك مبسطاً واضحاً ليس فيه من الطول ما يبعث على الملل أو يتشعب معه الحديث ، وليس فيه من الاختصار ما يظل البحث معه مغلقاً لم يستوعب العقل منه حاجته وغرضه .

وهذا العمل في مجموعه يعتبر استجابة لرغبة من يحب أن يقف من وراء معرفة كل حكم شرعي على حكمته والسر من مشروعيته والفائدة التي تجنى من ورائه .

أسأل الله تعالى أن يمتعنا بمرضاته ويقينا من حظوظ أنفسنا وأن يجمع لنا بين خيري الدنيا والآخر انه على كل شيء قدير .

محمد سعيد رمضان البوطي

الأيمان بالله وسر ضرورية

قال الله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيراً لكم ، وان تكفروا فان لله ما في السموات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً).

هذه الآية تتضمن أخطر حكم تكليفي خاطب الله عز وجل به الناس جميعاً في مختلف الأزمنة والأمكنة ، وهو الايمان بألوهية الله وحده : الايمان بأنه وحده الخالق ، وهو وحده الضار والنافع ، وهو المسبب لأسباب الكون جميعها ،وهو الذي أودع في الأشياء طبائعها ورتب لها وظائفها ، أي أنه هو الذي " أعطى كل شيء خلقه ثم هدى " ، وهو الذي يجمع الناس كلهم ليوم الذي لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير .

ولا يخرج عن عهدة هذا التكليف الا طفل صغير ، أو فاقد لرشده وعقله ، أو انسان عاش في بيئة لم يتسامع فيها باسم الدين ، ولم يلقه فيها مرشد أو نذير . فهذا وأمثاله يصدق عليهم قوله عز وجل (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) .

ويتساءل كثير من الناس عن الحكمة من هذا التكليف الالهي العام . ويسأل البعض : أي حاجة لخالق سبحانه وتعالى في أن يدين له عباده بالولاء والايمان ، وأي ضرر يناله لو لم يفعلوا ذلك ؟

والجواب أن منفعة الايمان بالله تعالى والدينونة له ، ليست عائدة الى الله عز وجل ، حتى نعجب من ذلك ونتساءل عن نوع هذه المنفعة وما يقابلها من ضرر . وانما منفعة الايمان بالله عائدة الى الجماعة الانسانية ذاتها ، كما أن ضرر الكفر به عائد اليها هي أيضاً .

وبيان ذلك أن الانسان مفطور على جملة من الصفات والطبائع التي لا بد له منها ، كي يتمكن من عمارة الكون وتسخيره والاستفادة منه ، مثل صفة العقل وما يتفرع عنه من الادراك والعلم ، والأنانية وما يتفرع عنها ما الأثرة وحب التملك والذات ، والقوة وما يتفرع عنها من الجنوح الى السيطرة وحب العظمة والجاه .

وهذه الصفات لا يمكن أن تؤدي عملها الصالح في عمارة الكون على نحو تسعد به الانسانية الا اذا كانت هناك رقابةعليا على هذه الصفات وكان صاحبها مستشعراً وجود هذه الرقابة .

اذ ان هذه الصفات والطبائع اذا تركت وشأنها كانت متبعاً للشرور، وأسباب الشقاء ، أكثر من أن تكون سبيلاً للخير والسعادة .

فصفة العقل أو العلم تنقلب الى شبكة تصطاد بها كرامة الانسان وحياته ، ومزية القوة وأسبابها تنقلب الى عواصف هوجاء تضرب الجماعات الانسانية ببعضها ، لتنحسر العاصفة بعد ذلك عن ضعاف مستعبدين وأقوياء متسلطين متأهلين !..

وليس الطغيان البشري في حقيقته الا نتيجة طبيعية لتحرر هذه الصفات من الانضباط بأي قيد . حيث يذهل صاحبها عن وجود رقيب يلاحظ كل تصرفاته ويدخر له العقوبة الصارمة على كل ما لا يرضى عنه من أنواع السلوك الصفات ، فينطلق على سجيته يفعل كل ما تشاء له نفسه وتهواه .

وليس الاستخذاء البشري وعبودية الانسان للانسان الا نتيجة طبيعية لهذا التحرر ذاته ، فان هذه الصفات عندما تنطلق عل سجيتها ، يتصارع أربابها في حلبة هذه الحياة ، فيفوز أولئك الذين فاقوا غيرهم في القوة وأسباب السلطان ، ويقع الآخرون بالضرورة تحت حكمهم وسلطانهم . ثم انهم يستسلمون لما يقتضيهم الحال من قهر وذل قد ينتهيان بهم الى عبودية مطبقة بسبب أنهم ذاهلون عن وجود اله خالق قاهر يقضي في خلائقه بما يشاء ولا معقبت لحكمه وقضائه .

ولو أن هؤلاء المستعبدين وأولئك الطغاة المستعبدين ، أدركوا وجود الاله وصدقوا كلماته وآمنوا برسله ، لأحجم الطغاة عن طغيانهم وتحرر العبيد عن العبودية لأقرانهم .

لقد حمل فرعون كفره عل أن يمد غاشية بطشه وسلطانه على سائر رعيته حتى أحالهم الى عبيد أذلاء له ، وحتى قال سحرته وهم بصدد اظهار براعتهم السحرية أمام موسى عليه الصلاة والسلام : (بعزة فرعون انا لنحن الغالبون) فقد ساقتهم مشاعر العبودية له الى انكار ذاتهم واسناد كل غلبة أو توفيق يحرزونه الى عزة فرعون وسلطانه .

فلما دخل الايمان بالله قلوب هؤلاء السحرة ، وأيقنوا أنه وحده الاله النافع الضار المحيي المميت . انقلب ضعفهم قوة ، وانطلقوا متحررين من أسر عبوديتهم الزائفة لرجل مثلهم ، وعادوا يردون الى فرعون انذاره وتهديداته في شمم وعزة واياء :

(. . لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض . انما تقضي هذه الحياة الدنيا . انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى).

واذاً . فسر ضرورة الايمان بالله ، هو ضرورة خروج الناس من عبودية بعضهم لبعض ، ودخولهم جميعاً في العبودية المطلقة لله تعالى .

وليس من سبيل الى تحرر الانسان من أسر العبودية والذل الا سبيل العبودية الصادقة لله عز وجل .

سبيل وحدة المسلمين

قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم . .) الآية .

هذه الآية العظيمة من كتاب الله تعالى تقرر أهم حكم من أحكام المجتمع الاسلامي . وهو وجوب كونه متحداً متضافراً وتضه للناس أقوم السبل الى ذلك، وهو الاعتصام بحبل الله أي التمسك بنظامه وشريعته .

ولسنا بحاجة الى استجلاء الحكمة من ضرورة وحدة المسلمين ، فقد رأينا فائدتها العظيمة يوم كانت الأمة الاسلامية متحدة متضامنة ، وذقنا الآلام الجسيمة يوم تصدعت وحدتها وزال تضامنها .

ولكن ما هي الحكمة من أن يكون الاعتصام بحبل الله هو السبيل الى الوحدة ، حتى كانت ضرورة الاعتصام به هي الأمر الأول منهما في ترتيب الآية وحكمها ؟

الحكمة من ذلك أن الأمم لا تتحد الا على مبدأ سبق أن آمنت به ، ولا تلتقي الا على محور يجذبها ويجمعها من شتات. فان لم يتحقق الايمان بالمبدأ الواحد أولاً ، فلا سبيل الى قيام الوحدة ثانياً . واذا لم تتركز نقطة المحور في القلب ، فهيهات أن يحيط بها طوق الدائرة من الأطراف . . !

جرب أن تعمد الى جماعة من الناس تتجاذب أفكارها مبادىء وقيم مختلفة متعارضة ، فهي بينها أوزاع وأشتات . . ثم ادعها ما شئت الى الوحدة والتضامن وحذرها ما شئت من بلاء الفرقة ومصائها ، افتسمع لندائك من مجيب ، أو تعثر لنصائحك على أي أثر ؟

بل جرب أن تقبل بنصائحك هذه الى أمة لا تطوف بها أفكار وقيم متخالفة ، ولكنها لا تمسك أيضاً بأي مبادئ أو قم تلتقي عليها ، فان دعوتها الى تكون كدعوة ماء سارب عل وجه الأرض الى أن يجتمع ويتكاثف فوق بعضه دون أن يحصره أي حوض . !!

لو دعا محمد صلى الله عليه وسلم عرب الأوس والخزرج من أهل المدينة ، الى الحب والتآلف والاخاء ، قبل أن يغرس في أفئدتهم عقيدة الايمان بالله واتباع سنته وهديه ، لذهب دعاؤهم لهم أدراج الرياح ولضلت كلماته . على تأثيرها وبلاغتها . عن أسماعهم ولضاعت وسط معاركهم المحتدمة وحروبهم المستعرة.

و لولا وحدة العقيدة والمبدأ لما تآخى مهاجري وأنصاري ، ولما انطوت مكائد اليهود من المدينة الى الأبد ، ولما ولت هاربة من وحدة الذين ظلوا يستمتعون من قبل بنيران خصوماتهم وأحقادهم أحقاباً من الزمن .

واذاً فلا بد لاقامة صرح الوحدة والتضامن ، من أساس العقيدة والمبدأ أولاً . فاذا توفر هذا الأساس تكامل البناء من فوقه تلقائياً ، وكان ارتباطه به كارتباط النتائج بالمقدمات . أما اذا لم يتوفر هذا الأساس ، فان من شأن مختلف الميول والمسالك والأغراض أن تعصف بالأفكار عن سبيل الوحدة والتضامن وتشردها في فجاج تائهة متخالفة .

وانظر الى هذه الحقيقة كم هي واضحة في قوله تعالى :

(وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ،ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلك وصاكم به لعلكم تتقون).

ولعلك تقول : فاذا كان أساس المبدأ الواحد ، هو المرتكز الأول لوحدة الأمة ، فما الفرق بين مبدأ وآخر وما هي أهمية الالهي في هذا المجال ؟

والجواب أنك اذا تحولت عن المبدأ الالهي الذي سنه الله تعالى للبشر ، وحملهم عليه طوعاً أو كرهاً ، عادت المبادىء الوضعية الأخرى قيماً فكرية قابلة النظر والبحث ، وما من صاحب بصيرة ورأي الا وهو قادر على أن يردها بمثلها أو خير منها . فهي أذاً منبع خلاف وشقاق أكثر من أن تكون سبيل وئام ووفاق . ولم يكن لبلاء هذا العالم أن يستشري بين أممه وأقطابه لولا المبادىء التي تتصارع فيها ولا تكف عن النفخ في ناره .

فلذلك لا يصلح أمر البشر الا المنهج الذي وضعه لهم رب البشر جل جلاله .

ذكر الله
وأثره في حياة الانسان

قال الله تعالى (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) .

هذه الآية تقرر حكماً من أهم الأحكام الاسلامية التي يبدأ غراسها في القلب ، ويتفرع أثرها في عامة قضايا المجتمع.

ذكر الله تعالى . .!! أهم منطلق تربوي يضعه الله تعالى لحياة عباده في الأرض ، وهو ليس بسبسة لسان ولا فرقعة سبحة ولا قفزاً أو التواء على الأرض ، وأنما هو أن يظل القلب يسبح في طائف من مراقبة الله تعالى وتصور أنه عز وجل يطلع على كل غيب مجهول وضائع مستور ، وأنه لا مناص من وقفة حساب بين يدي هذا الاله العظيم على كل جناية وعصيان !.

هذا هو الحكم الذي تقرره هذه الآية وآيات كثيرة من كتاب الله تعالى .
ولكن ما الحكمة ؟.. وما وجه الحاجة الى ذلك ؟.. وهل هي حاجة الله أو العبد ؟
الحكمة . . أن حياة المجتمع الانساني لا تسير على نهج سوي متناسق ، الا اذا استشعرت أفئدة الناس رقابة الله عليها ، وتذكرت في جنب ذلك أنه ما من حق يضيع ولا واجب يطوى .
وتفصيل القول في ذلك أن هذه الحياة الدنيا من شأنها أن تقبل الى الانسان بأحد وجهين : أحدهما وجه من النعمة بكل وسائلها وأسبابها ، ومن شأن الانسان اذا ما رأى من الدنيا هذا الوجه أن يتيه في سكرة النعيم ويمتلكه طغيان الترف ، فلا يحسب حساباً لتقلبات الدهر ومصيره ،ولا يلتفت الى من حوله أو الى ما ينبغي أن يكون من شأنه تجاهم .
والآخر هو وجه من البؤس والمصائب والآلام .ومن شأن الانسان اذا ما أقبلت اليه الدنيا بوجهها هذا ، أن يعنصر قلبه الهم ويأخذ الكرب بحلقه وأن ينظر حوله فلا يرى الحياة الا سجناً مفعماً بالمصائب والآلام ،من حيث هي للآخرين الذين من حوله مقصف لهو ومرتع أنس وأداة نعيم . وربما فكر ونظر . . فلم يجد دواء لآلامه خيراً من أن يحكم على نفسه بالاعدام وينهي أيام حياته على الأرض ! . .
فما هو الدواء الذي من شأنه أن ينبه ذلك السكران من سكر ترفه ونعيمه ،ويطلق هذا المعذب من سجن بلائه وضيقه !
أما سنة الحياة فلا سبيل الى تبديلها .. وستظل تبلو الناس بهاتين التجربتين . وانما الممكن هو البحث سبيل المتغلب على آفاتهما .
فما هو السبيل ؟
لقد عجزت أبحاث الفلاسفة والمصلحين عن اصطناع أي علاج أو وسيلة من شأنها أن تضبط نعيم الحياة عن التحول الى حالة من الترف والجنون ، وأن تضبط بلواها عن التحول الى اختناق وكرب لا يطاق .
ولكن الوسيلة النجعة الوحيدة هي اتباع التي خاطب الله بها عباده جميعاً . . الوسيلة هي ربط القلب بذكر الله تعالى ، فان من شأنه أن يجعل حياة الانسان في نجوة من أن تقع ضحية لسكرة نعيم أو ضحية لمصاب أليم . ذلك أن ذكر الله عز وجل يورث القلب أثرين مختلفين ، فهو يورثه الطمأنينة والرضى ويملؤها بالرهبة والخشية . أما الطمأنينة فعلاج لمن أدبرت عنه الدنيا وابتلته بمصائبها ، وأما الخشية فعلاج لمن أقبلت اليه ورقص من حوله نعيمها .
وانظر الى هذه الحقيقة كيف يجليها كلام الله عز وجل : يقول الله عز وجل مرة : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).
ويقول مرة أخرى : (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً).
أما طمأنينة القلب فتأتي من يقين المؤمن الذاكر بأن الدنيا بكل ما فيها ليست مما بعدها الا كحلم طاف بنائم في الليل . يوشك الليل أن يمضي ويقبل الفجر بحقائق الحياة وألوانها وليس ن حق يضيع في ميزان الله وعدله .
وأما خشية القلب فتأتي من يقينه الله تعالى : (ولتسئلن يومئذ عن النعيم) وبما يعقب نعيم الدهر من غصص لانجاة منها الا بلطف الله ورحمته .
ومن بين الطمأنينة والخشية يعتدل المزاج وتستقيم أسباب الحياة .

العلم أساس كل سلوك واعتقال

قال الله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) . ينهى الله عز وجل في هذه الآية نهياً صريحاً قاطعاً عن اتباع ما لم يتوفر الدليل العلمي الثابت على أحقيته وثبوته سواء فيما يتعلق بالاعتقاد أو السلوك . وهذا النهي بذاته يتضمن بطبيعة الحال الأمر باتخاذ العلم وسبيله ميزاناً لكل ما يتعلق بأمور الحياة .

والعلم هو ادراك الشيء على ما هو عليه في الواقع سواء أكان ذلك الشيء من المحسوسات أو المغيبات . فلا جرم أن الظنون والفرضيات والنظريات لا تعتبر علماً ، وانما هي طريق الى العلم لم يتم بعد ، فلا بد من اجتيازه ولكن ما الحكمة من هذا الأمر ؟. .
وماذا يضير الانسان أن يغمض عينيه وفكره عن معرفة الحقائق ، ثم يسير في فجاج الحياة كيفما اتفق ؟..
والجواب أن هذا الحكم الالهي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحكم أساسي قبله ،وهو وجوب الايمان بالله تعالى واقامة منهج الحياة طبقا لشرعه وأحكامه .
وليس من سبيل لاقامة الايمان وتوابعه في القلب الى سبيل العلم والادراك اليقني . وليس من آفة أخطر على الايما بالله تعالى من الابتعاد عن المنهج العلمي والتعرض للظنون والأوهام والفرضيات وأسبابها ثم الوقوف عندها والاعتماد عليها .
وما ألحد الملحدون في ذات الله تعالى الا لأنهم أقاموا الظنون والنظريات في عقولهم مقام اليقين والعلم ، ثم وقفوا عندها ولم يتجاوزوها . وما استقر الايمان بالله تعالى في أفئدة المؤمنين الصادقين الا لأنهم لم يرتضوا بالعلم اليقيني بديلاً ، وأولئك هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب) .
هذه حكمة .. وحكمة أخرى من وراء وجوب اتباع سبيل العلم . هي أن من شأن الانسان أن ينقاد في حياته لمؤثرات مختلفة كلها من قبيل الهجس والأوهام ، وتأتيه هذه المؤثرات عادة من الظروف التي تحيط به والبيئة التي يعيش فيها .
وذلك ، كهذا الذي ينتاب الانسان من ردود الفعل ، وعقد النفس ، ودوافع العصبية ، والانتصارات للذات والسير مع الأغراض والأهواء . ومن المعلوم أن أكثر ما يسير الناس في فجاج الحياة الفكرية والعملية ، هذه الدوافع المختلفة التي تعصف بهذه البيئة والظروف وملابسات الأحوال . والذي يذهب ضحية ذلك كله انما هو سلامة العقل وحرية الفكر .
يتضايق الانسان نفسياً من رجل من الناس ، فيحمل عقله بسبب ذلك حملاً على استنكار ما يقوله ويدعو اليه . وينتاب الرجل عقدة نقص لأسباب طارئة في حياته فيذهب في التأثر بعقدة نقصه مذهباً يخاصم فيه العقل وأحكامه . وتطوف بانسان آخر نوازع عصبية ، فيمضي في الانتصار لعصبيته الى نهاية يصم فيها أذنية عن نداء الحق وعلمه.!
وهذا أخطر مظهر من مظاهر العبودية التي قد يقع الانسان حبيساً في أغلالها ، اذ تشل عنده فاعلية العقل وتصبح قواه الفكرية تابعة في ضراعة وذل لظروفه ومشاكله النفسية .
فما هو السبيل الذي هيأه الله للانسان كي يتخلص من ربقة هذه العبودية ؟
السبيل أن يصحو دائماً الى ميزان العلم وحقائقه ، ويستنجد لذلك بالأسلحة التي جهزه الله عز وجل بها : العقل ، والسمع ، البصر ، ومختلف المدارك والحواس . فاذا صحا الانسان الى ذلك وراح ينمي مداركه العلمية ويوسع أمامه من آفاقها ، فان سلطان تلك المؤثرات النفسية يتقلص عنه ، ويخبو ما يكون له من ضياء أمام نور العلم وسراجه المتقد ، ولا تعود الظروف البيئات عذراً لأولئك الذين يحبون أن يعتذروا بها . .
ولا شك أن أكثر الناس تأثراً بالأوهام أبعدهم عن ساحة البحث ونظره .وأبعدهم عن اسر هذه الأوهام أكثرهم تعاملاً مع العقل والعلم الخالصين دون استغلالهما من أجل غرض نفسي دفين .
ولأهمية العقل وما يعينه على البحث والنظر ، من الحواس المختلفة كان امتلاك الانسان لذلك كله من أهم ما حمل من الأمانات التي سيحاسب على تضييعها . من أجل ذلك تعلن الآية بصراحة ووضوح عن مسؤولية الانسان غداً عن هذه الأسلحة التي ائتمنه الله عليها : (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) .

من آداب الاقبال على المساجد

قال الله تعلى : (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين).

تتضمن هذه الآية حكمي من أهم الأحكام الاجتماعية التي خاطب الله تعالى بها عباده في الأرض . والذي يعنينا البحث فيه هنا انما هو الحكم الأول منهما . وهو ضرورة أخذ الرجل أسباب زينته من ملبس نظافة عند الاقبال الى المساجد . وقد جاءت هذه الآية تبطل وتحرم ما كان قد اعتاده عرب الجاهلية من الاقبال الى المسجد الحرام والطواف بالكعبة عراة لا يسترهم ثوب ولا يجملهم مظهر . ولم تأمرهم الآية بمجرد ستر العورة أو ارتداء الملابس ، ولكنها أمرته بما هو أخص من ذلك . أمرتهم بأخذ الزينة ،وأمرتهم بذلك عند كل مسجد لا في المسجد الحرام وحده .

واذا كانت الحكمة واضحة من النهي عن العري سواء في المساجد وغيره ، فما الحكمة من الأمر بما فوق ذلك من أخذ الزينة والتجميل في المظهر ؟

الحكمة من ذلك تحقيق القصد الذي أقيمت من أجله المساجد وندب الناس من أجله للصلاة فيها . ان الحكمة من ندب الناس الى المساجد ليست مجرد أداء الصلوات . فقد كان يسع الناس أن يصلوا في منازلهم مع أهليهم وأولادهم ولقد كان يسعهم لذلك أن يتخذ كل لنفسه منعزلاً يأوي اليه في أوقات العبادة . وربما كان ذلك أجمع لقلبه وأقرب الى أسباب الخشوع في نفسه.

ومع ذلك فقد ندب الشارع جل جلاله الناس الى التلاقي في المساجد . وجعل صلاة الرجل مع الجماعة معادلة لسبع وعشرين صلاة من تلك التي يصلها الرجل منفرداً !

وانما سبب ذلك القصد الى أن يجتمع الناس . . فيتعارفوا . . فيتآلفوا . وتآلف المسلمين بعضهم مع بعض أعظم غاية جاء الاسلام لتحقيقها ، فلا جرم أن ترى كثيراً من العبادات في جوهرها أو آدابها وسيلة هامة لتحقيق هذه الغاية .

واذا كانت هذه هي الحكمة العليا من تلاقي المسلمين في المساجد ، فقد كان لا بد أن يتسم تلاقيهم هذا بما يعين على تحقيق هذه الحكمة لا بما يعوق السبيل اليها .

من أجل ذلك أجمع الفقهاء على أن من اراد أن يسعى الى المسجد لصلاة الجماعة ، فانتبه الى رائحة كريهة تنبعث من طعام قد أكله كثوم أو بصل أو نحوهما ، فان ذلك يعتبر معذرة شرعية تسوغ له التخلف عن الجماعة بل تفضل له أن يصلي في بيته .

ومن خرج من حانوته أو انطلق من عمله قاصداً المسجد ، فرأى نفسه يرتدي من ثياب العمل ما يؤذي به الآخرين برائحته أ اتساخه أو نحو ذلك ، ولم يكن في طوله اذ ذاك أن يستبدل بثيابه تلك ما هو أليق بالمسجد منها . فان ذلك يعتبر عذراً شرعياً يسوغ له الصلاة في حانوته أو مركز عمله . وخير له أن يفعل ذلك من أن يؤذي الناس بثوبه.

وكلما كان الجمع في المسجد أكثر احتشاداً كانت الدعوة الالهية الى التجمل والنظافة أكثر وأدق .ولذا يجمع الفقهاء على استحباب الغسل لصلاة الجمعة ولبس أفضل الثياب لها والتطيب من أجلها بأفضل الطيب .

كل هذا من أجل أن يحقق اللقاء غايته السامية وهي أن يتعارف الناس في رحاب الله تعالى فيتألفوا ويتعاضدوا ، وتتساقط مما بينهم أسباب الفوارق الدنيوية وتذوب مما بينهم الضغائن والأحقاد.

وليس من سبيل لأن يتآخى المسلمون ويتواددوا ويستشعروا زيف الفروق والرتب الدنيوية التي تفصل ما بينهم الا عندما يلتقون صفاً واحداً بين يدي خالقهم العظيم جل جلاله في بيت من بيوته .

وكما يعمل البشر على الوجه والتحية الاسلامية على اللسان معملهما في تحقيق هذه التآلف ، فذلك من شأن التجمل في المظهر والنظافة في الملبس أن يكون كل منهما عوناً على تحقيق هذا الغاية التي ما أقيمت مساجد الله في الأرض الا من أجل تحقيقها .

لا تقاليد في الاسلام

يقول الله تعالى (واذا قيل لهم تعالوا الما أنزل الله والى الرسول ، قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) .

هذه الآية . ومثلها آيات أخرى في كتاب الله تعالى . تنعي على الذين اتخذوا تقليد الآخرين منهجاً لهم في الحياة ، وتنتهى المسلمين عن اتباع هذا السبيل . . سبيل تقليد الآخرين دون معرفة أو تقويم لميزان الحق والباطل في ذلك.

وبناء على هذا الحكم الواضح في كتاب الله تعالى فقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز التقليد في مبادىء العقيدة ، وأن من قال انني أومن بالله ارى أهلي جميعاً يؤمنون به أو لأن البيئة تفرض علي ذلك ، فان ايمانه ليس بالايمان الصحيح الذي أراده الله تعالى منه .

ومن هنا كانت تسمية الأحكام الاسلامية كالصلاة والصيام والقيم الأخلاقية بالتقاليد ، تسمية خاطئة غير صحيحة . اذ ان كلمة " التقاليد " انما تعني في عرف اللغة وما تواضع عليه علماء الاجتماع مجموع العادات التي يرثها الآباء عن الأجداد أو التي تسري بمجرد عامل الاحتاك في بيئة من البيئات أو بلدة من البلدة . وأحكام الله ليست من هذا القبيل وانما هي مبادىء قائمة على أساس من المصالح الدنيوية والأخروية .

والحكمة من النهي عن تصور العقيدة والأحكام الاسلامية مجرد تقاليد ، واضحة.

فان تمسك الانسان بمبدأ أو سلوك معين بدافع من التقليد المجرد للآخرين يتنافى مع الكرامة الانسانية التي أعزه الله بها ، كما يتنافى مع حركة العقل الطبيعية . والله عز وجل انما تعبد عباده بهذا الدين اعزازاً لهم وتكريماً لا اهانة واذلالاً.

ثم انك اذا لم تدرك من فوائد الأحكام الاسلامية المتعلقة بالسلوك أو الاجتماع الا أنها تقاليد اسلامية كما يسميها كثير من الناس ، فذلك ليس الا حجة عليك في تمسك بهذه الأحكام اذ من الجدير بك ، وأنت انسان ذو عقل وفكر أن لا تتمسك بما هو مجرد تقاليد ، وأن تستبدل بها ما يهدي اليه العقل على ضوء الحق والمصلحة الصحيحة.

ولذلك فسرعان ما يتلفت عن أحكام الشريعة الاسلامية وآدابها ،أولئك الذي يحسبونها تقاليد . . ويتمسكون بها على أنها مجرد تقاليد . . وأبعد الناس عن ترك هذه الأحكام أو الاستهانة بها ، أولئك الذين أيقنوا أنها مبادىء تحمل الى الناس أسباب سعادتهم وتجنبهم . أفراداً وجماعات مطارح الشقوة والهلاك .

ولعل من أبرز مظاهر الغز والفكري بالشعارات الدخيل ، ما شاع من اطلاق شعار " التقاليد " على جملة القيم والمبادىء الاسلامية المتعلقة بالمجتمع والسلوك ، وترويجها في كل مناسبة . فهذا الشعار وا كان يطلق من قبل كثر من الناس اطلاقاً عفوياً دون تنبه الى مضمونه الخاطىء الذي ذكرناه ، ولكنه في أصل ترويجه واشاعته ليس خطيئة عفوية .

فالغرض الأول من ترويج هذه الكلمة " التقاليد الاسلامية " هو أن يؤتى بمعظم النظم والأحكام الاسلامية فيسدل فوقها شعار : التقاليد . حتى اذا مر على ذلك زمن وألف الناس هذه التسمية وارتبطت في أذهانهم بمعظم أحكام الاسلام ، ناسين أن هذه الأحكام ليست في حقيقتها الا مبادىء قائمة على ما يقتضيه العقل والبحث السليم أصبح من السهل على أعداء الاسلام أن يحاربوا أحكامه من النقطة التي تنفذ اليها حرابهم وسهامهم . وهي نقطة حرب التقاليد في عصر يبحث فيه الناس عن الحرية .

ولكي لا يقع المسلمون في شرك هذه المكيدة ، يجب أن يتذكروا دائماً كيف نهى الله الناس عن تقليد بعضهم بعضاً وعن اتباع الأبناء لما كان عليه الأجداد دون تمييز للحق من ذلك عن الباطل ، ثم يتذكروا أن أحكام الله تعالى التي كلفنا بها اعتقاداً أو عملاً ليست الا مبادىء مرتكزة على ما تقتضيه مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم وليست مجرد تقاليد لما كان عليه آلاباء والأجداد .

العدل في الكيل والوزن

قال الله عز وجل : ((وأوفوا الكيل اذا كلتهم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً) .

يأمر الله عز وجل في هذه الآية بتحقيق مظهر من أبرز مظاهر العدل وأهمها ، وهو العدل في الكيل والوزن بين المتبايعين . ويتكرر هذا الأمر باهتمام في آيات أخرى من كتاب الله عز وجل ، وربما سيق هذا الأمر مساق التهديد لمن لم يأتمر به ويخضع له ، إذ تراه يقول : (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) .

أما في الآية الأولى فهو يأمر الناس بالعدل في ذلك وينبههم إلى أن ذلك خير لهم وأحسن عاقبة ونتيجة ، أي لا يغرنكم الربح العاجل الذي تجنونه من وراء التلاعب بالكيل أو الوزن فإنه شيء موقوت ، وسرعان ما ينقلب الربح إلى خسارة وبلاء .

وفي ذلك إشارة إلى جانب من الحكمة العظيمة المتعلقة بهذا الحكم .

فهو سبحانه وتعالى ينبهنا إلى أن الظلم في المعاملة التجارية قد يعقبه بعض الربح ، وقد يكون ذلك دافعاً صاحبه إلى الإمعان في ظلمه أو خداعه ، بيد أنه سرعان ما يعرف بين الناس بذلك ويجعل الله تعالى من عادته تلك مظهراً يتلبسه فيعرف به بين عامة أهل السوق ورواده . فينقلب عليه الحال ويتحول ذلك الربح الجزئي السريع إلى خسارة كلية دائمة .

فذلك هو معنى قوله عز وجل : (ذلك خير وأحسن تأويلاً) .

وحكمة أخرى من وراء هذا الأمر الإرشادي الخطير . هي أن سلامة التعامل بين المسلمين تعتبر المهيئ الطبيعي الأول لقيام حقيقة التضامن والتآلف فيما بينهم ، فبقدر ما يشيع بينهم من مظاهر العدل في المعاملات والمبايعات اليومية الدائرة بينهم يشيع بينهم في أعقاب ذلك معنى التماسك والتآلف والاتحاد .

وسوء التعامل بين المسلمين يعتبر المهيئ الطبيعي الأول لقيام مظاهر الشقاق والبغضاء فيما بينهم . وبقدر ما يشيع بينهم من التظالم في المعاملات التجارية المتعلقة بأقوات الناس وأسباب عيشهم ، يشيع بينهم التهارج والتخاصم والشقاق .

وإنما يركز البيان الإلهي العظيم . في مجال التحذير من الظلم في التعامل . على هذا المظهر الجزئي بذاته وهو التلاعب بالكيل أو الوزن ، دون ما وراء ذلك من فنون الغش والخداع ، لأن منطلق هذه المظالم الخطيرة يكون في أول الأمر مسائل جزئية مستحقرة ، يمارسها الرجل بادئ الأمر وهو غير عابئ بشأنها أو ناظر إلى أهميتها ، حتى إذا أحس بنتائجها القريبة الخادعة واستمرأ طعمها ، دعاه ذلك إلى البحث عن فنون أخرى من هذه الجزئيات . . فلا يزال يوغل فيها ويتفنن في أنواعها حتى ينقلب عمله التجاري الذي كان مشروعاً إلى أخطر وسيلة غير مشروعة لأخذ أموال الناس بالباطل .

وهكذا فإن تلاعباً يسيراً بالكيل أو الوزن . قد لا يراه البائع ذا أهمية أو خطورة . يسري إلى نهاية خطيرة يتحول فيها البيع إلى عملية سرقة وقنص .

وهذا هو أسلوب القرآن دائماً عندما يحذر من الانحراف إلى الفواحش والموبقات إنه يحذرك من نهاياتها الخطيرة البعيدة ولكنه يحذرك من الاندفاع في طرقها السهلة القريبة . ذلك لأن السبيل الوحيد إلى أن لا تقع في تلك الموبقات هو أن لا تسلك مسالكها . أما إذا سلكت فيها ودنوت إليها فهيهات أن تقوى على الرجوع . إنك تقع عندئذ ضمن حدود جاذبيتها ، وقلما تمكن مغامر من التخلص عن تلك الجاذبية والرجوع إلى أول السبيل الذي انحرف إليه .

من أجل هذا ينهى الله تعالى دائماً عن القرب من الموبقات لا عن نفس الوقوع فيها . فهو يقول : (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن . ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) .

التحقق من الأخبار قبل الاعتماد عليها

يقول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

الحكم الذي تقرره هذه الآية ويخاطب الله تعالى به عباده ، هو أن يتريثوا فيما يبلغهم من الأنباء المتعلقة بهم ، بعضهم مع بعض حتى يتأكدوا من صدقها ووقوعها .

فليس كل ما قد بلغك عن صاحب أو صديق أمراً جازماً لا يعتريه احتمال أو شك ، وليس كل من بلغك نبأ عن إنسان تعرفه ، صادقاً أو متثبتاً من هذا النبأ .

ولهذا الحكم الإسلامي العظيم حكمة باهرة ، إليها مرد قيام المجتمع الإنساني السليم .

إن دعائم المجتمع الصالح لا يقوم إلا على أساس من التساند والتعاون . وإنما يتم التعاون بالصدق . . فما لم يتوفر الصدق بين عمال " ورشة " يتعاونون في إقامة بناء ، لا يمكن لبنائهم أن يقوم ، وربما ظهر قائماً لبضعة أيام ، ولكنه لا يلبث أن يتهاوى بعد ذلك .

وليس من فرق بين تعاون الأمة صرح مجتمعها السليم ، وتعاون العمال لإقامة بنائهم الصالح المتين .

وأول خطوة إلى التعاون الاجتماعي إنما هي المشورة الصادقة والرأي المخلص . ومن هنا ندب الله تعالى إلى الصدق وألزم الناس به وحذرهم من الكذب و مغبته . ولكن ارأيت لو أن في الناس من استهواه الكذب على الآخرين من أجل هوى في النفس أو مصلحة من مصالح الدنيا ، ولم يكن لتحذير الله تعالى ونهيه من سبيل إلى إصلاح حاله ، فما هي الوسيلة إلى منع أن يؤتى الكذب ثماره وإلى قطع الطريق على من جاء يتوسط به لنيل غرض أو إشفاء غليل . . ؟

الوسيلة هي تنبيه الآخرين إلى أن لا يحملوا أي خبر يتلقونه على محمل الصدق ، وأن عليهم أن يستعملوا كل ما آتاهم الله تعالى من وسائل النظر والبحث للتحقق من أمره وللتأكد من صدقه ، حتى لا يقعوا في الندم من جراء استنادهم إلى أمر وهمي لا حقيقة له .

وبذلك ، فإن الشريعة الإسلامية قد أخذت الحيطة . حفظاً لسلامة المجتمع . من جانبين : جانب المتكلم إذ أمرته بالصدق وحذرته من الكذب ونبهته إلى عظم إثمه وجريرته ، وجانب السامع إذ أمرته بالتثبت والتأكد مما يسمع وحذرته من أن يسارع إلى تصديق كل ما قد يبلغه فيقع في ندامة من أمره .

ومبعث الأهمية في هذا الأمر ، هو ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع من التضامن والتآلف وما ينبغي أن يشيع فيه من الوداد . وأكثر ما يفصل عرى الألفة بين إخوة متآلفين . أو أصدقاء متحابين أو أسرة متفاهمة ، سعاية كاذبة يغامر بها ذو غرض أو هوى أو حقد دفين . فلا هو يلتفت إلى تقوى الله تعالى والمخافة منه إذ حذره من الكذب والافتراء ، ولا هم ينصاعون إلى أمره عز وجل في التريث والتحقق من الأمر الذي بلغهم ، فتقع الفتنة انطلاقاً من وهم غير حقيقي ، ثم تكر أحداثها وتتعقد مظاهرها وتغدو بعد ذلك حقيقة لا علاج لها . وتتنكس من جراء ذلك وحدة المجتمع وتنهار قواه بدلاً مما كان قد أريد له من التماسك والقوة والتضامن .

ولو أن أحد الطرفين فاء إلى أمر الله تعالى ، فحفظ المتكلم لسانه من الكذب أو أمسك الآخر سمعه عن المبادرة إلى التصديق ، لما قامت الفتنة ولما حدث افتراق أو شقاق .

وما وقعت الندامة على أمر لا رجوع فيه ولا علاج له ، كتلك التي تقع من جراء تصديق خبر كاذب تقام عليه تصرفات سريعة خاطئة . وجلت حكمة الخالق العظيم إذ ينبهنا إلى ذلك قائلاً (. . أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيحوا على ما فعلتم نادمين) .

مفارقة السوء وأهله

يقول ربنا جل جلاله (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . إنكم إذا مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) .

في هذه الآية نص صريح بين الدلالة على انه ما ينبغي للمسلم أن يركن إلى شيء من اللغو المحرم يسمعه بأذنه أو إلى مظهر من مظاهر الإثم يراه بعينه ، ثم لا يفارقه ولا يعمل على إزالته وإنكاره . وتذهب الآية في الاهتمام بهذا الحكم مذهباً تهدد فيه من لم يفارق مثل هذه المجالس أو المظاهر ، بأنه معتبر في حكم الله عز وجل مثل أهلها ، وأنه سبحانه وتعالى يجمعه وإياهم تحت عقوبة ذلك اللغو أو الإثم .

أما الحكم فهو شيء متفق عليه عند جميع الأئمة والباحثين ، لما جاء في ذلك من نص واضح الدلالة لا يحتمل قيداً ولا تأويلاً .

وأما الحكمة ، فنقطة ذات أهمية بارزة تتعلق بأسس التربية وأسبابها .

وقد يعجب من كل هذه الشدة في الحكم ، من لم ينتبه إليها ولم يمعن النظر فيها ، وقد يقول قائل : وما يضيرني أن أرى المنكر الذي لا أمارسه ، أو أسمع اللغو الذي لا أومن به ؟

إن مبعث الخطورة في هذا الأمر ، أن المسلم إذا أطلق لنفسه العنان في مجالسة أصحاب المنكر ورؤية أو سماع منكراتهم كان ذلك أيسر سبيل تربوي سريع إلى أن يتدرج هذا المسلم في التعود على رؤية ذلك المنكر أولاً ، ثم في ائتلافه له وأنسه به ثانياً ، ثم في التعلق به واستخراج المسوغات و المعاذير له ثالثاً .

وانظر .. فأن كثيراً ممن يعيشون من المسلمين في المجتمعات الأوروبية ، يتضايقون مما يرونه ويسمعونه من مظاهر الفحش أو الإثم في أول عهدهم بها . ثم إنهم يغفلون عن هذا الضيق وأسبابه بمرور فترة من الزمن. وبمرور فترة أخرى يتعودون عليها ولا يشعرون بشيء مما قد كانوا يشعرون به تجاهها ، رغم اعتقادهم . من الناحية العملية . بحرمتها ، حتى إذا مضت فترة أخرى من الوقت ، بدؤوا يستعشرون حسنها وصلاحيتها ويدافعون عن وجهات أهلها ويرون لهم المسوغات المختلفة في عكوفهم عليها .وهكذا فإن استمرار المجالسة أو المشاهدة وحدها حولت فكرة المنكر إلى معروف . . وحولت الشعور بالنقمة إلى شعور بالرضى . وإذا وصل المسلم إلى هذه النهاية واستوى مع أولئك الآخرين في الرضى عن المنكر والاستئناس به ، فسيان أن يشترك معهم في لغوهم وآثامهم أو أن يكتفي بالرضى و التسويغ . . فمن أجل ذلك بين الله تعالى أنه سيجمعه مع أولئك الآخرين في جهنم جميعاً . إذ إن مآله إلى أن يكون مثلهم.

وتلك هي الحكمة من حرمة أن يهاجر المسلم إلى بلاد الكفر ، بل من حرمة الإقامة فيها لغير ضرورة من دراسة علم مفيد أو استجلاب رزق ضروري .

وربما ظن بعض الناس أن هذا الحكم تضييق لا لزوم له . ولكنا إذا علمنا أن أكثر ما يصطبغ به الإنسان من فكر وسلوك إنما يأتي عن طريق البيئة والاعتياد لا عن طريق النظر والعقل المجردين . أدركنا أن هذا الحكم الإلهي هو الذي يجب أن يصار إليه ، وهو الأساس التربوي الأول للمحافظة على الحق الذي آمنا به اعتقاداً وخلقاً وسلوكاً.

ومن أجل هذا كان بيان الله تعالى حاسماً في هذا الأمر إذ قال : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ . . قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتها جروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

على أنه يستثنى من ذلك . كما قلنا . من اضطره إلى العيش معهم علم لا بد له أو للأمة الإسلامية من تحصيله أو رزق لابد له من استجلابه . وعليه أن يكون ذا عزيمة غلابة في الاحتفاظ بعقيدته وخلقه وسلوكه . وعليه أن يجهد جهده بأن يجعل من ذاته ياقوتة لا يحرقها اللهب . .

من آداب الإنفاق في سبيل الله

يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض . ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد) .

من المعلوم أن الإنفاق في سبيل الله للفقراء والمحتاجين ، من أهم الطاعات المبرورة التي يثاب المؤمن عليها . إلا أن لذلك شروطاً وآداباً أوضحها الله تعالى ، فلا يتساهل المنفق على إنفاقه أي أجر ما لم يراع هذه الشروط والآداب.

من أهم ما ذكرته هذه الآية من أن الإنفاق لا ينبغي أن يكون إلا من طيبات ما قد يكسبه المنفق ، والطيبات وصف يشمل الكسب الحلال الذي لم تتدخل وسيلة غير شرعية في اكتسابه كما يشمل الصالح المستطاب من الرزق مما لا تأنفه الطباع ولا تعرض عنه النفوس . فينبغي أن يتوفر كل ذلك في المال الذي يعمد صاحبه إلى إنفاقه . . ولا يليق به أن يتقصد الخبيث منه يتبرع به ويلقى الفقراء لإنفاقة عليهم ، وهو لو رآه في السوق لأعرض عنه ولما أخذه إلا متساهلاً فيه ومعتبراً أنه قد تجاوز كثيراً من حقه بذلك .

هذا هو الحكم الذي يقرره خطاب الله تعالى بأسلوب تربوي رائع أخاذ ،فما الحكمة من ذلك ؟

الحكمة أن الله تعالى عندما فاوت بين أرزاق الناس ، وابتلى الغني منهم بغناه والفقير منهم بفقره ، ثم أمر الأغنياء بالإنفاق من فضول أموالهم على الفقراء . لم يرد من ذلك أن يتخذ الأغنياء من مبدأ الإنفاق هذا وسيلة لأن يتعالوا بذلك على الفقراء ولا أن يتخذوا منهم مثابة يطرحون عليها فضلات أرزاقهم مما قد تبرموا به أو استخبثوه أو استنفدوا غرضهم منه .

فهذا العمل إن لم يكن في حقيقة سبباً لغضب الله تعالى وسخطه ، فإنه لا يمكن بحال أن يكون سبباً لأجر يناله أربابه عليه . وكيف ينالون عليه ثواباً وهو إنما اهتدى بعمله ذاك إلى المكان المناسب لإلقاء كل ما تعافه نفسه من الأطعمة وما قد ملته نفسه من الملبس والكساء ، أو ما لا يصلح عنده من الرزق والقوت . ولعله لو لم يجد فقيراً يقبل ذلك منه لتيمم به المزابل و مطرح الفضلات .

إن سلوك هذا السبيل من الإنفاق ، من شأنه أن يحمل أقوى معاني الجرح والإيذاء لأولئك الفقراء والمحتاجين ، ولئن كان إلى جانبه شيء من النفع المادي ، فإن النفس الإنسانية لأكرم من أن تقبل الإيذاء في سبيل نيل لقمة من طعام . ولا يريد الله تعالى لعباده أن يتعودوا إلا على مزيد من الكرامة والإباء في حياتهم ، وإذا كان الفقر . .فإن الفقر مع توفر الكرامة لصاحبه خير عند الله وأفضل من أن يتحول إلى غنى في المال وفقر في الكرامة والعزة الإنسانية .

من أجل هذا يخاطب الله تعالى هؤلاء الناس قائلاً : (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم) .

وما أمر الله أصحاب الأموال بالانفاق على الفقراء من أموالهم ، الا ابتلاء لهم بعد أن غرس في نفوسهم الحب العجيب للمال وجمعه وتربيته . وانما يستأهل النجاح والفوز في هذا الامتحان من اقتطع من أحب أمواله اليه فآثر به من هو أحوج منه اليه ، ثم لم ينظر اليه الا على أنه هو المتفضل المتكرم اذ قبل أن يأخذه منه ، فهيأ له بذلك فرصة أجر يناله من الله تعالى على ذلك .

فهذا هو الانفاق القائم على النهج الاسلامي الصحيح . .

وهذا هو الانفاق الذي يحقق مزيداً من التآلف والحب بين فئات المسلمين وجماعاتهم .

ولقد كان الله قادراً على أن يغني الناس عن بعضهم ، فلا تكون لأحد منهم في عنق الآخر منة وفضل ، ولكنه أراد . جلت حكمته . أن يترابط الناس بعلاقات الحاجة والمعونة فيما بينهم حتى ينسج لهم في ذلك خيوط الألفة والتضامن والوداد ،وحتى لا يؤول المجتمع الانساني الى أنكاث .

وأمر الناس في هذه الحياة ، مرده أولاً وآخراً الى الابتلاء والامتحان . وما أجل الحكمة الالهية القائلة : (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ وكان ربك بصيراً) .

النهي عن الاكثار من اليمين

قال الله تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) .

ينهى الله عز وجل عباده في هذه الآية عن أن يتخذوا من اسمه أداة دائمة لتوثيق أقوالهم وحمل الآخرين على تصديقهم ، أو وسيلة للتخلص من رجاء الناس وحاجاتهم . ويؤكد الله عز وجل هذا النهي في آية أخرى بقوله : (واحفظوا أيمانكم) أي لا تجعلوها مبتذلة تستعملونها في كل حق وباطل ، ويذم الذين يكثرون من اليمين فيقول : (ولا تطع كل حلاف مهين) .

أما الحكمة من هذا النهي فتعود الى أمرين أثنين كلاهما في غاية الأهمية بالنسبة لما ينبغي أن يكون عليه المسلم .

أولهما : أن اسم الله عز وجل ينبغي أن يكون دائماً في المرتبة الأسمى من شعور المسلم وفؤاده ، حتى اذا ذكر به من غفلة أخذته الخشية وشعر بالهيبة، وكان لذلك سلطان كبير على قلبه وهي الصفة التي عبر عنها القرآن بقوله عز وجل : (الذين اذا ذكر اله وجلت قلوبهم) . وهيهات لمن كان دأبه اقحام اسم الله تعالى في كل جد وهزل ، واستعماله أداة لترويج تجارته أو انفاق بضاعته أو اعتماده وسيلة لحمل الناس على تصديقه في كل ما يتحدث اليهم به . هيهات لمن كان هذا دأبه أن تبقى في قلبه مع الأيام ذرة من الخشية أو الرهبة عندما يذكر باسم أو يتلى عليه شيء من آياته وهديه .

ان اسم الله عز وجل ، لا يذكر هؤلاء الناس الا بمصالحهم أو تجاراتهم التي يقرنون اسمه عادة بها . وتلك هي أخطر آفة تبدأ بسوء أدب مع الله تعالى ، ثم تنتهي بقسوة في القلب تبعد صاحبه رويداً رويداً عن حقيقة الايمان ذاتها .

ومن قبيل ذلك ما يدأب عليه بعض الناس من اتخاذ صيغة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة لترويج بضاعة أو التعبير عن فرحة . فقد أجمع العلماء عل استهجان ذلك ومنعه ، اذ في ذلك الى جانب الامتهان الذي يجب أن يحاذر المسلم من

التلبس به ،التهوين من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، واتخاذ أصدق صيغة لتعظيمه تعبيراً عن غرض دنيوي تافه . فهذه هي الحكمة الأولى :

أما الحكمة الثانية : فهي أن اليمين انما شرع في أصله حملاً لصاحبه على الصدق والدقة في التعبير ، اذ هو يجعل الله تعالى بذلك شاهداً على ما يدعي ويقول . والمسلم أياً كانت حاله لن تبلغ به الجرأة على الله أن يجعله شاهداً على قول هو كاذب فيه ، اذ هو يعرض نفسه بذلك لأعظم سبب من أسباب سخط الله تعالى وعقابه . ولذلك كانت اليمين بشروطها وقيودها المعروفة من أهم البينات المعتبرة في الدعاوي .

فاذا ذهب المسلم يجعل من هذا اليمين الخطير كلمة دائرة على لسانه عند كل مناسبة ولدى أي محاورة أو خصومة ، فانها تفقد بذلك أهميتها الذاية ، ولا يبقى فيها (مع الزمن) ما يحمله على استشعار أهميتها أو سلطانها . وبذلك يصبح القسم وغيره سواء عند هذا الرجل في امكان الكذب والافتراء . بل يصبح استعمال الحلف بالله فناً من فنون الخداع ووسيلة من وسائل الكذب المغطى .

وفي ذلك ما يعرض هذا الانسان لبالغ سخط الله تعال وعقابه . وما يعرض المجتمع للأذى والفوضى والاضطراب ،اذ تنعدم الثقة بالمسلمين بعضهم من بعضهم ، ولا تبقى لرابطة الايمان بالله والخضوع لسلطانه أي ثمرة اجتماعية مفيدة ، اذ هي . عندئذ . ليست رابطة الا في الظاهر فقط .

أهمية افشاء السلام

عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . ألا أدلكم على أمر اذا فعلتموه تحاببتم ؟.. أفشوا السلام بينكم " .

رواه المسلم والترمذي وابن ماجه وأبو داوود .

يندب رسول الله صلى عليه وسلم المسلمين في هذا الحديث الى التحابب ويبين أن من أهم أسباب ذلك افشاء السلام بين المسلمين .

وقد أجمع المسلمون على أن افشاء السلام من أهم شعائر الاسلام وأبرزها وان بدء المسلم أخاه بالسلام حيثما رآه مندوب اليه ، أما رد السلام فواجب يأثم المسلم بتركه . وأجر الذي يبدأ بالسلام أكثر عند الله من أجر من يرد عليه وان كان الأول مندوباً والثاني واجباً .

وقد أوضح الفقهاء أن هذا من الأماكن القليلة المعدودة التي يعتبر فيها التدب أفضل من الواجب .

أما حكمة ما أودعه الاسلام من أهمية في هذا الشعار الاسلامي الفريد ، فهي أنه من أهم ما ينسج خيوط الألفة والمآنسة والوداد بين جماعات المسلمين . بلهو من أهم ما يغسل عن أفئدتهم ما قد علق بها من أسباب الضغائن والأحقاد .

أرأيت الى الماء العذب اذ يتدفق جارياً باستمرار ، كيف يجعل المكان الذي يجري عليه نقياً من كل رجس أو مستقذر . فذلك السلام عندما يشيع على ألسنة المسلمين بصيغته الاسلامية العذبة ، في أسواقهم وحوانيتهم ومجتمعاتهم ، فانه لا يبقي من درن في أفئدتهم ولا يترك فرصة لبغضاء تسلل الى نفوسهم .

ولعل المسلمين قد نسوا هذه الأهمية البالغة لهذا الشعار الاسلامي العظيم مما ألفوه واعتادوا عليه . فأصبحوا يتساهلون فيه من أجل ذلك . ولكنهم لو تأملوا في كلمة " السلام عليكم " يخاطب بها المسلم أخاه أياً كان يعرفه أو لا يعرفه ، حيثما رآه : في طريق أو شارع عام أو حانوت تجارة أو ملتقى سمر أو مسجد من مساجد الله ، ثم في ردها الذي يأتي بعدها : " وعليكم السلام ورحمة الله " . أقول لو تأمل المسلمون هذا ، لرأوا فيه أروع وأعجب مزية يمتاز بها المسلمون عن أمم الأرض جميعاً . ومن شأن هذه المزية اذا روعيت حق رعايتها وأعطاها المسلمون كامل حقها ، أن يشيع بينهم حقيقة السلام الذي هو شعارهم ، فلا يعيش فيما بينهم حقد ولا بغضاء ولا يقيم بينهم كيد ولا عدوان .

ان اسلام المسلم يدعوه الى أن يعلم دائماً أنه (كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأخ للمسلم فهو لا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره . وهذا المعنى قد يكون غائباً عن بال المسلم في كثير من الأحيان بسبب غفلة أو تشاغل . فاذا ما أقبل اليه صاحبه بقوله : السلام

عليكم ، صحا الى ذلك المعنى الاسلامي العظيم وتنبه الى الوشيجة الالهية الكبرى التي تصل بينه وبين أخيه هذا ، وجاء رده عليه بقوله " عليكم السلام ورحمة الله " بمثابة اقرار واذعان لهذه الوشيجة ومعاهدة على الحفاظ عليها والرعاية لها .

من أجل قضت شرعة الاسلام بتجدد السلام كلما تجدد اللقاء حتى وان كان لقاء قريباً وان كان الحاجز بينهما غير ذي بال كجدار أو بضعة أشجار . أرأيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : اذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه ، فان حالت بينهما شجرة أو جدار، ثم لقيه فليسلم عليه أيضاً . أبو داود .

وم أجل هذا كان جديراً بالمسلم المعتز باسلامه أن يتحول عن كل تحية اعتادتها الأمم المختلفة الى تحية الاسلام التي عودنا اياها ربنا جل جلاله ، والتي جعلها شعاراً لحياتنا فيما بيننا نتذكر بها حقيقة الاسلام كلما غفلنا عنها . ونذكر بها وشيجة الحب والسلام فيما بيننا كلما أوشك أن تعدو عليها عوادي الأهواء والنفوس .

في تربية الأولاد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مروا أبناءكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع " رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه .

يتضمن هذا الحديث حكماً من أهم الأحكام المتعلقة بتربية الأولاد ، بل هو يتضمن ثلاثة أحكام في ذلك : أمر الأولاد بالصلاة ، ثم ضربهم عليها ، والتفريق بينهم في المضاجع . وهو واجب من الواجبات الشرعية المتعلقة بعنق الوالد ، يسأله الله تعالى عنه يوم القيامة ان ضيعه ، ويثيبه الأجر العظيم عليه ان قام به على وجهه .

أما الحكم منه ، فبيان ذلك اجمالاً أن الله تعالى أناط أمر الصغار وتربيتهم بأولياء أمورهم بدءاً بالولي الأقرب وهو الاب ، فهم المسؤولون عن كل تقصير يبدر منهم أو انحراف يقعون فيه ، كما أنهم مجزيون مثل أجورهم عن كل بر يتصفون به وعلى صالح يعملونه .

ومسؤولية الأب عن أولاده تعتبر أول حلقة في سلسلة المسؤوليات التي أقام الله المجتمع الانساني عليها . ولذلك فانها أهم وأخطر حلقة فيها على الاطلاق .

أما بيان الحكمة من هذا الحكم على وجه التفصيل ، فهو أن الطفل عندما يولد ، انما تسلمه الأقدار الالهية الى أبويه وهو مطبوع بطابع الفطرة الاسلامية السليمة بحيث لو لم يعبث أي عابث به ولم يلق من العناية الا المحافظة عليه ، لتمت نشأته على الحق والهدى ، ولما وجدته مائلاً عن السبيل الحنيف يمنة أو يسرة وانما ينحرف الذين ينحرفون في صغرهم ، لأن عواصف معاكسة هاجت على غراسهم اللدان الضعيف دون أن يكون من حولهم أي حماية له ، فلم تزل به حتى قصفته أو اقتلعته .

وانما وقت الحماية لهذا الغرس ، تلك الفترة التي يكون فيها لدناً ضعيفاً لا يحمي نفسه بذاته ، فاذا تجاوز تلك الفترة لم يبق من فائدة للحماية أو الرعاية ، لأنه ان كان قد نشأ صالحاً مستقيماً فقد استقل بنفسه ولم يعد بحاجة الى غيره . وان نشأ معوجاً غير سوي ، فقد استصلب على تلك الحالة ،ولا يميله عنها الا التحطيم أو الكسر . فمن أجل ذلك كان سبيل التربية الصالحة ف الحكم الاسلامي هي الفترة الأولى من نشأة الطفل وحياته .

وأهم ما يجب أن يألفه الطفل ويعتاده . بعد تنبيه الى العقيدة السليمة عن الكون . انما هو الصلاة . فهي المنطلق السليم لترسيخ بقية القيم الخلقية والاسلامية في نفسه وسلوكه ، وهي الغذاء الفطري الوحيد لشخصيته الاسلامية التي تحوي جميع المبادىء الانسانية العليا.

فلاجرم أن تركيز الأب في تربية طفله انما ينبغي أن يكون على الصلاة . والتربية لا تؤتي ثمارها الا اذا قامت على أساسين اثنين : الرغبة والرهبة . وانما ينبغي أن يكون البدء باستعمال الأول منهما ، حتى اذا لم تجد نفعاً ، وكان الطفل قد وصل من الوعي الى حيث يدرك معنى الرهبة وآثارها دون أن يجدي معه الترغيب . كان لا بد من استعمال هذه الوسيلة الثانية .

ومن الخطأ الجسيم ما يتراءى للبعض من أن الأفضل أن يؤخذ هذا الطفل . في قضايا الدين وسلوكه . دائماً باللين والترغيب فقط . ذلك لأن حوافز الرغبة قد لا تكون متقوقة دائماً على عبء العبادة لا سيما الصلاة . بل ان الطفل يجد . في الأغلب . ثقلاً كبيراً في أن ينهض دائماً الى الصلاة لأوقاتها ، ومهما أغريته في سبيل ذلك بالمرغبات ، فانه يسعى جاهداً أن يحتال لنيل الأجر ويتخلص في الوقت ذاته من عبء الجهد الذي يطلب منه .

ومن الخطأ أيضاً ما يتراءى لبعضهم . بدافع من الشفقة . من أن الزمن ،على امتداده ، سيهيىء للطفل ظروف الصلاح والاستقامة ، فحمله ذلك على التهاون في تربيته واهمال شأنه . حتى اذا اشتد عوده واستصلبت نفسه لم يبق من سبيل في يد الأب أو غيره لمعالجة أمره أو تقويم وضعه . ولا يجديه اطلاقاً . عند الله عز وجل . أن يعتذر اذ ذاك بأنه لا يقوى على اصلاحه فان الله عز وجل لم يكلفه بأن يفعل ذلك عندما أصبح رجلاً سوياً يشركه في النظر والبحث ويتقدمه في القوة والجسم . وانما كلفه بذلك عندما سلمه اياه مطبوعاً بفطرة الاسلام منطوياً على كيان لدن خاضع لكن تحويل أو توجيه . وكان الطفل بذلك أخطر أمانة في يده . فلما ضيعها باهماله كن ذلك منه أخطر مسؤولية يحاسبه الله عليها يوم القيامة .

العدل في أعطيات الأولاد

عن النعمان بن بشير أنه قال ، ان أباه بشيراً أتى الى رسول لله صلى الله عليه وسلم : اني نحلت ابني هذا . أي أعطيته . غلاماً كان لي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكل ولدك نحلتهم مثل هذا ؟ قال : لا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فارتجعه . متفق عليه .

ينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث عن أن يخص الأب بعض أبنائه بشيء من المال دون اخوته الآخرين ، ويأمره بالتسوية بينهم في ذلك . فان اختص بشيء منه بعض أبنائه دون رضى الآخرين فالعلماء في ذلك بين محرم ومكره . ولم يقل أحد منهم باباحة ذلك ، لصراحة هذا الحديث في النهي عنه . أما ان توفر الرضى الحقيقي لدى الآخرين فهو أمر جائر وتتفاوت درجة استحبابه بدءاً م الاباحة حسب المصلحة الداعية الى ذلك .

وحكمة هذا الحكم واضحة . فان من أهم ما ينبغي أن يعتمده الوالد في تربية أولاده التساوي بينهم في كل ما يمنحهم اياه من ذاته أو ماله ، فان رعاهم بعاطفة كان عليه أن يساوي بينهم فيها ، وان منحهم من حنانه كان عليه أن يكون عدلاً في توزيع ذلك عليهم ، وان أكرمهم بشيء من المال كان عليه أن لا يميز أحداً منهم على آخر .

ومعلوم أن التهاون في شيء من هذا المبدأ يستوجب آثاراً ضارة تذهب بجدوى معظم الوسائل والمحاولات التربوي التي قد يقوم بها الوالد .

واذا كان اهمال العدل في توزيع نظرات العطف والحنان ، يعقد من نفوس الصغار ويشيع مشاعر الحقد فيما بينهم ، فان اهمال العدل في توزيع المال أو الهدايا عليهم من شأنه أن يطلق فيما بينهم مشاعر السخط والحقد حتى وان أصبحوا رجالاً كباراً .

واذا كان السلام حريصاً على أن تشيع في كيان الأسرة عوامل الود والتعاون والتضامن ، فانه يحذر أشد الحذر من هذا الذي قد يعصف بكل عوامل التفاهم والوداد فيها .

ثم ان المجتمع ليس الا مرآة كبيرة ينعكس على صفحاتها كل ما قد تتلبس به الأسرة من الأحوال . فشيوع العدل والتآلف في أفراد الأسرة يعكس مثل ذلك على واقع المجتمع ، وظهور أسباب الضغينة والبغضاء فيها يعكس مثل ذلك أيضاً عليه .

وما حاق الظلم على واحد من أفراد الأسرة ثم لم يستطع أن يحقق لنفسه أسباب الخلاص منه ، الا واتجه بحقده الى المجتمع يعثو فيه ويتقاضى ظلامته منه .

ولو لا ما يعانيه كثير من الأسر من اهمال المسؤولية وضياع العد فيها لما رأيت شيئاً من مظاهر الفوضى أو الظلم سارية في المجتمع سائدة بين كثير من أفراده.

فمن أجل ذلك يشتد الاسلام في أحكامه المتعلقة بالأسرة ووجه تربيتها ورعايتها . ومن أجل ذلك كان حقاً على الأب أن يساوي بين أولاده في الرعاية والعطاء ، طالما كانوا سواء أمامه في أصل البر والطاعة .

قد يقول البعض : ولكن الرجل يملك أن يعطي كل ماله لشخص أجنبي ، أفلا يملك أن يعطيه لواحد من أولاده دون الآخرين ؟

والجواب : ان هناك فرقاً بين المثالين . فليس بين الشخص الأجنبي والأولاد قدر مشترك من العلاقة العاطفية بالمعطي ، ولذا فقد فتدخل الاعتبارات والعواطف المختلفة التي من شأنها أن تميز أحدهما على الآخر . أما الأولاد الذي يتسمون بقدر مشترك من صلة القرب بشخص والدهم ، فان الاعتبارات كلها لا تقوى على ترجيح واحد منهم على الآخر ما دام الكل متصفين بالبر والطاعة لأبويهم .

أما اذا خرج بعضهم عن حدود الطاعة وتجاوز حدود البر الذي أوجبه الله تعالى على الأبناء ، فتلك حالة أخرى لا بد من الحكمة والروية في معالجتها ، وقد تكون سياسة المال من حيث البذل أو المنع وجهاً من أوجه الحكمة في ذلك .

الدين والأمانة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ايمان لم لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له) رواه أحمد والبيهقي وبان حبان.

الأمانة والعهد ، وصفان متلازمان ، فحيث وجدت الأمانة وجد معها الوفاء بالعهد ، وحيث فقد أحدهما فقد معه الوصف الآخر ، وانما يكون الرجل أميناً اذا كان ذا وفاء بعهده وكلامه أمام الآخرين ، وانما يتسم الرجل بالوفاء بالعهد اذا كانت الأمانة من مقومات شخصيته .

وكلاهما من أهم الركائز التي لا بد منها لشخصية المسلم . وكلاهما واجب من أهم الواجبات التي تلي رتبة الايمان بالله مباشرة .

أما الحكة من وجبها وأهميتها في حياة المسلم ، فهي أن الله عز وجل انما كلف عباده بالايمان به والايمان بما يتبع ذلك من اليقين بيوم الحساب والجنة والنار ، من أجل أن تستيقظ أفئدتهم لمراقبته وأن تظل على بين بأنه سبحانه وتعالى يراهم ويحصي عليهم جميع تصرفاتهم فيحاسبهم عليها ، ان خيراً فخير وان شراً فشر ، فتستقيم حياتهم بذلك على نهج قويم من التناصح والتعاون والبعد عن أسباب الظلم والكيد .

فاذا ادعى المرء أنه مؤمن بالله ورسوله ، وموقن بايمانه باليوم الأخر ثم راح يخون الآخرين أو يخدعهم ويخلف في عهوده معهم . فانما هو متناقض مع نفس في الحقيقة . اذ لو كان قلبه مستشعراً حقيقة الايمان بالله ، لا ستشعر أنه يراقبه وأنه سيحاسبه على كل ما يقترفه ، فكان ذلك حاجزاً له عن تلك الموبقات .

ان الذي لا يأمنه أخوه المسلم على كلمة يسر بها في أذنه ، أو على معاملة يصدق فيها معه ، أ على حق أو مال استودعه اياه ، أو على مشورة يأمل أن يخلص له فيها . ليس صادقاً في ايمانه بالله عز وجل ولا صادقاً في استشعار المخافة منه .

وماذا يفيد الناس أن يتظاهروا أمام الله عز وجل بالايمان به ، أو أن يلهجوا بالمزيد من ذكر وتسبيحه ، أو أن يبالغوا في رفع المآذن الى جو السماء . اذا لم يكن في أفئدتهم من مهابة الله وخشيته ما يحملهم على أن يكونوا أمناء لبعضهم ، صادقين في تعاونهم مخلصين في تضامنهم ؟

وهل كانت شرعة الدين من أساسه الا حملاً للناس على أن يسيروا في المنهج الصحيح الذي يوفر لهم أصدق معاني السعادة للفرد وللمجتمع . فماذا جنى من الدين من أخذ منه ألفاظه ثم ابتعد عن حكمته وغايته في الحياة؟

وما هو مصير المجتمع الذي يفقد فيه أهله الأمانة وصدق العهد . .؟

ان مصيره أن يصبح أنكاثاً ، تختفي منه الثقة بين أفراده فلا يطمئن انسان الى آخر في كلمة يقولها أو تجارة يعرضها أو حتى موعظة يقدمها .

مصيره أن لا يلتق عشرة من أفراده على تعاون مثمر بناء في سبيل تحقيق شيء من خير الآخرة أو الدنيا ، اللهم الا أن يلتقوا على ذلك بضعة أيام ثم يروغ أسرعهم خداعاً وأقواهم كيداً بالمكر على الآخرين ، حيث ينتثر جمعهم وقد خزنوا في أفئدتهم بدلاً من روح التضامن والوداد أجيج الحقد والبغضاء .

فمن أجل ذلك كان صفة الأمانة وصدق العهد جزءاً لا يتجزأ من صفة الايمان بالله عز وجل . ومن أجل ذلك لم يكن من سبيل الى أن يتصف الانسان بالأمانة والعهد الصادق الا عن طريق الايمان الصادق بالله عز وجل .

ان محمد بن المنكدر رضي الله عنه (وهو التاجر الصدوق في تجارته) لم يكن ليطوف في الأسواق والضواحي بضعة أيام وهو يبحث عن الأعرابي الذي اشترى من عامل له بضاعة بأغلى من قيمتها الحقيقية ، لكي يعيد اليه الزيادة التي أخذت منه خطأ . لو لم تكن مخافة الله تعالى عامرة في قلبه .

وان الخفاء الراشدين ومن حذا حذوهم ، لم يكونوا ليستريحوا في القضاء بين الناس ، لو لا أن الناس الذين كانوا في عهدهم آمنوا بالله حقاً فاستشعروا رقابته عليهم ، فشاع الأمن والصدق بسبب ذلك فيما بينهم .

ومن أجل ذلك ليس عجيباً أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ايمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له " .

الرفق في الأخذ بأحكام الدين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقة " رواه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر .

يعبر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث عن أهم حكم من الأحكام الكلية التي تقوم عليها شرعة الاسلم . فهو يوضح أن عزائم الدين شديدة وكمالاته كثيرة غير متناهية ، فمن أصر على أن يستبق عزايمه كلها ويسع في نيل كمالاته جميعها ، انقطع به الطريق وانهدت منه القوى ، وربما عاد بسبب ذلك الى شر مما كان عليه . ولذلك كان من الواجب على المسلم أن يأخذ نفسه في أحكام الله تعالى بمبدأ التدرج ، وأن يروض نفسه على الانسجام مع أحكام الشريعة الاسلامية برفق وعلى مهل . ويشبه النبي عليه والصلاة والسلام ذاك الذي أسرع يخترق الطريق الى كمالات الدين وعزائمه بطفرة ومن غير رفق . بذاك الذي انبتت به دابته أو وسيلة نقله (أي انقطع به في منتصف الطريق) فلا هو وصل ال الغاية التي كان يسعى اليها ، ولا هو استبقى وسيلته التي أراد أن يتبلغ بها !

وهذا الحكم الذي هو في حقيقته قانون تربوي عظيم ، ينطوي على حكمة ما ينبغي أن تخفى على أي مسلم . فمن المعروف أن التكاليف الاسلامية شاقة على النفس والجسم ، والمطلوب من المسلم أن يروض كلاً من نفسه وجسمه عليها حتى يتم نوع من الانسجام والتوافق بينهما ، وليس المطلوب أن يحكم على كل من نفسه وجسمه بعقوبة صارمة تتمثل في تحميله ما لا يطيق ولا يصبر عليه .

أي المطلوب من المسلم في شرعة الاسلام أن يربى نفسه على الانقياد في الطريق الأصلح لها وعلى ائتلاف ذلك الطريق والأنس به .

وليس المطلوب منه أن يبتليها بكل عنف وضيق لا لشيء الا لأن يكيدها بذلك ، فما جاء الاسلام بشيء من هذا وما كلف الله . باجماع علماء المسلمين . أحداً من عباده أن يتقرب اليه بشيء من المشتقات لذاتها .

ولذلك كان المتوخى في تكليف الله عباده بالمبادىء والأحكام أن يعودوا أنفسهم عليها ويخضعوا حياتهم لنظامها ، لما في ذلك من الخير لنفوسهم والسعادة لحياتهم . ومثل هذا لا يتم الا بالتدرج والتمهل ونقل النفس في مدارج الدين خطوة فخطوة بحيث تكون السابقة هي الدافعة لتحقيق التي تليها . وبذلك تتكامل الخطى سليمة ثابتة يشد بعضها من أزر بعض ، لا يخشى معها نكسة الى الوراء أو ردة من جراء ضيق غير محتمل ، وخير نموذج لهذا الرفق المتهمل ، التدرج الذي سار عليه التشريع في بدء نزوله .

وفي المسلمين كثير ممن كانوا يجهدون أنفسهم أشهد الجهد في تحمل عزائم الدين وكمالاته ، ثم ارتدوا فجأة الى حالة أصبحوا يهملون فيها اهم شعائر الاسلام . ولو نظرت ، لرأيت أن سبب ذلك على الغالب . أنهم لم يكونوا يعودون نفوسهم على أحكام الدين تعويداً ولكنهم كانوا يعاقبونها بمشاقة للتعذيب فقط . والنفس قد تخضع لما يصادم طبيعتها وشأنها حيناً من الوقت ولكنها سرعان ما تتمرد

مرتدة في أسرع حين الى أسوء من النقطة التي سيقت منها .وعن مثل هذه الحال يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ان هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه " .

وكم رأينا من معلمين وآباء ، حملوا أبناءهم أو تلاميذهم من أعباء الاسلام وكمالاته ما لا يطيقون ، وظنوا أنهم قد نجحوا في ذلك عندما استاقوهم بعصا الرهبة والزجر ، ثم تمردوا فجأة وانطلقوا ملتفتين لا يلوون على شيء ، فكان شأنهم مع معلميهم كما يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم : كالمنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . وكم رأينا من شبان أسهرو ليالهم الى الفجر ركعاً وسجداً ، يحملون أنسفهم . طفرة واحدة . على سلوك سبيل الواصلين من أولي العزم ، ثم آل أمرهم الى ترك الصلوات المفروض وارتكاب المحرمات الكبيرة.

غير أن هذا كله لا يعني مشروعية التساهل في القاسم المشترك من الواجبات الأساسية . ان بين التساهل غير المشروع ، والتشدد غير المشروع فارقاً كبيراً لا يخفي على من تأمل في طبيع الاسلام وهديه وللشيطان بين هذا وذاك جولات يحاول أ يلبس فيها على المسلم الطريق ، فليستعن المسلم على ذلك بقبس من العلم يقيه من تلبيس الشياطين .

ليس من شأن المسلم أن يحقر أخاه

قال رسول الله صلى الله عليه : " يحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " رواه مسلم في حديث طويل من حديث أبي هريرة .

تتضمن هذه الفقرة من حديث رسول الله صلى الله عليه ، النهي الشديد عن أن يحقر المسلم أخاه المسلم بأي لون من ألوان الاحتقار ولأي سبب من الأسباب . والاحتقار هو الازدراء والاستصغار ، والحقير في الأصل يطلق على الصغير الضئيل ، ثم أريد به ما يشمل الضآلة المادية المحسوسة والضآلة في الأهمية والقيمة . وبهذا تدرك الفرق بين النقد المشروع اذا توفرت شروطه وأسبابه والاحتقار غير المشروع مهما توفرت له من أسباب وظروف .

إن النقد استدراك على عمل أو تصرف غير صحيح أو سديد ابتغاء التجنب عنه . أما الاحتقار فهو تهوين و استخفاف بذات الشخص نفسه بقطع النظر عن الملابسات والأعمال .

وإذا اتضح الفرق بينهما . وهو فرق قلما يتنبه له كثير من الناس . أدركت الحكمة من النهي الشديد عن احتقار المسلم أياً كان وكيفما كان . إن الاحتقار ، بكل مظاهره وأسمائه وأصنافه سلوك تهديمي لا ينطوي على أي خير أو تقويم لا للشخص المحتقر خاصة ولا للوضع الاجتماعي عامة ، بل هو ينطوي على نقيض ذلك ، إذ هو يحمل إلى المجتمع بذور الحقد وأسباب التصدع و التدابر . ولو كان الذي يحتقر الآخرين يريد بذلك إصلاحاً للفرد والمجتمع ، لتلمس ما قد يراه أو يشعر به من أخطاء الفكر أو السلوك فشذبها وحذر منها بدلاً من التعرض للأشخاص بذواتهم ، ولوجد فائدة الإصلاح بذلك أمراً ميسوراً لا يستعصي على التحقيق .

وأكثر الذين يدأبون على احتقار الآخرين ، إنما يفعلون ذلك لأنهم إنما يتلمسون في الناس دائماً النقائص والعيوب بدلاً من استشعار ما فيهم من الفضائل والمحاسن . والذي تعود في حياته على هذا السلوك التائه الخطير لا يمكن أن يعجبه من الناس أحد ، ولا يمكن أن يعالج ما يراه منهم بشيء من الإصلاح والنقد . لأن سنة الله في عباده . حاشا الرسل والأنبياء . أن يقوم تركيبهم الإنساني على خليط من النقائص و الكمالات . وقد يتفاوت منسوب كل منهما من شخص إلى آخر ، ولكن الخليط في أصله باق بل متأصل في طبيعة الناس جميعاً ، وما هواية البحث عن عيوب الآخرين نفسها إلا نموذج من أهم هذه العيوب وأخطرها .

فالذي لا يستطيع إلا أن يتتبع عورات الناس على اختلافها لا يستطيع أخيراً إلا أن يقع في جريمة احتقارهم وازدرائهم ، إذ هو لا يملك أن ينقد عيوبهم جميعها نقداً بناء مصلحاً ، لأن ذلك لو تحقق لا نقلب الناس كلهم بذلك إلى ملائكة معصومين ، وهذا ما لا يمكن أن يكون . فتتحول . بسبب ذلك . نظرته الانتقادية في عيوبهم إلى احتقار ذاتي لأشخاصهم .

وإنما الدواء الناجع لمن قد ابتلي بهذا البلاء ، أن يتأمل في ذاته كما يتأمل في ذوات الآخرين ،فسيجد . إن كان عاقلاً منصفاً . أنه متلبس بنقائص وعيوب لا تقل عن عيوب أولئك الذين يظل يحتقرهم لأحلها ، ثم ليأخذ نفسه بإصلاح هذه العيوب فإن أعجزته الحيلة

عن ذلك ولم يتمكن من تطهير نفسه من النقيصة والعيب ، فليدرك من ذلك أنها سنة الخالق في الكون ، جعل النقص طالباً لا ينفك عن الإنسان ، لكي يجد بوساطة ذلك سبيلاً ميسوراً للتواضع مع الآخرين ، ولكي يسعه أن يغمض العين عن مثل هذه النقائص إذا رأى شيئاً منها عالقاً بهم .

على أن شريعة الله عز وجل ،لم تدع الناس بناء على هذا ، إلى أن يرضى بعضهم عن انحرافات بعض ! .. بل دعاهم إلى التعاون على الإصلاح بكلاً مظهريه السلبي والإيجابي وأمرهم أن يشد بعضهم من أزر بعضهم حتى يرتقوا إلى أقرب درجة ممكنة من درجات الكمال . ولكن شتان بين هذا الذي شرعه الله من النقد الصحيح القائم على التعاون والتواصي ، وذاك الذي حرمه الله من الاحتقار القائم على الغرور والحقد . وعن أولهما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الدين النصيحة .

وعن ثانيهما يقول عليه الصلاة والسلام : بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

من مظاهر بر الوالدين

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن تولى " رواه مسلم والترمذي وأبو داود من حديث عبد الله بن عمر .

يوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث ، إن من أبرز مظاهر بر الرجل بأبيه أن يكرم ويبر أولئك الذين كانوا موضع إكرام أبيه وحبه عندما كان حياً ، فيصلهم ويحسن إليهم ويحيي سيرة أبيه معهم ، وهو باتفاق الأئمة من أفضل القربات إلى الله سبحانه وتعالى .

ولهذا البر الذي ندب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر اجتماعي كبير، قد لا ينتبه إليه من لم يلتفت إلى هذا الحديث ويتأمل فيه .

وبيان ذلك أن أهم وظيفة كلف الله بها عباده في الأرض ، هي إقامة وشائج القربى فيما بينهم واقتلاع أسباب الفرقة والبغضاء من النفوس ، وخير الناس في هذه الدنيا من تركها بعد أن غرس فيها شيئاً من هذه الوشائج ، وشر الناس فيها من ترك فيها وراءه بذور الفتنة والشقاق .

والولد الصالح هو ذاك الذي يتلمس رضى الله عز وجل في بر أبويه ولذا فقد جعله الله تعالى الأمين الأول على سعي أبيه وراء جميع مصالحه الدنيوية والأخروية ، سواء في ذلك عهد الحياة وما بعده فالولد على كل حال امتداد للخير الذي استبقاه أبوه من بعده عن طريق ما كلفه الله به من تربيته والمحافظة عليه .

ومن جملة الخير الذي تركه أبوه من بعده تلك الصلات الإنسانية التي كان قد أقامها بينه وبين إخوانه ، وتمكين وشائج الحب في الله عز وجل . إن تآلف عدد من الأخوة المتحابين في الله مساهمة عظيمة جداً في إقامة صرح الأخوة الإسلامية بين عباد الله تعالى في الأرض .

وإذا كان هذا الوالد قد تولى عن الدنيا إلى دار عقباه ، وترك من ورائه بناء خيراً جميلاً كهذا ، فإن ابنه البار أمين على هذا البناء من بعد موته . فعليه . إتماماً لحق الأبوة في عنقه . أن يواصل صحب أبيه من بعده وأن يحافظ على ما بينهم من وشيجة الود والقربى أن تزول أو تتقطع .

وبذلك تنمو علاقات المحبة والوداد بين الناس و تترسخ جذورها ، وتتسع مع الزمن دائرتها ، إذ يحافظ الخلف على ما قد أسسه السلف ويزيد فيه ، ويأتي الخلف الثاني ليفعل مثل ذلك ، وهكذا . . ما دام الجميع متقيدين بهذه الوصية العظمى من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكم من صلات إنسانية جميلة ، قامت بين جماعة من الناس بفضل من سعى بهم إلى ذلك ، وظل يغذيها ويربيها طالما هو حي يعيش معهم . فلما مات تفرق جمعهم وانقطع شملهم ، إذ لم يخلفه من بعده من يرث هذه الدعاية والمحافظة عليها والاهتمام بها .

ولقد علمت العادات والقوانين صنوفاً من الميراث يرثها الولد من أبيه ، هي الأموال العينية والحقوق القيمية المختلفة ، فهو يخلفه في استثمارها ورعايتها والإفادة منها . ولكن شريعة الله عز وجل أضافت إليها ما قد يفوقها في الأهمية والخطورة ، وهو الصلات والوشائج الإنسانية التي كان قد نماها المورث في ظل من رعاية الإسلام وهديه . إن هذا الإرث الإنساني العظيم ما ينبغي أن يموت بموت مالكه الأول ، وإنه أولى . في حكم الشارع . من العقارات والأموال بالرعاية والاستثمار ، وإن على الوراث أن يخلف مورثه فيها ، وأن يقدم لها ما تقتضيه من مغرم ، ويأخذ ما تقدمه إليه من مغنم .

غير أن هذا القانون الإلهي الذي دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام لا يعني أن على الولد أن يحافظ على أخلاء أبيه ويخلفه في وداده لهم ، كيفما كانوا ومهما كان الأساس الذي بني عليه ذلك الوداد . بل الأمر كله مقيد بما كان قائماً على المنهج الإسلامي الصحيح . إن البر الذي يكلف به الولد تجاه أبيه إنما هو بر في غير معصية الله ، وبره لأهل وده من بعده مقيد بهذا القيد نفسه ، فمن ورث من أبيه إرثاً لم يأته بطريقه الشرعي السليم وجب عليه أن يعيده إلى وجهه الصالح السليم ، سواء أكان مالاً أو حقاً ، أو صحبة وصداقة مع الآخرين .

الدعاء مخ العبادة لله

قال الله تعالى : (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، وادعوه خوفاً وطمعاً ، إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

يأمر الله عز وجل عباده في هذه الآية بأن يتقربوا إليه بالدعاء بدافعين هما : الخوف من عذابه وبلائه ، والطمع في عافيته ونعمائه وقد تكرر هذا الأمر كثيراً في كتاب الله تعالى . فهو يقول في آية أخرى (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين) ويقول في صفة طائفة من عباده الصالحين : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً و رهباً وكانوا لنا خاشعين) . ولذلك تم اجتماع العلماء على أن التقرب إلى الله بالدعاء هو لب العبودية له ، وهو أهم ما ينبغي أن يصطبغ به المسلم من مظاهر الذل لله تعالى .

وليست الحكمة من ذلك ما قد يتصوره البعض من أنه السبيل الذي ينبغي أن يسلكه الإنسان لنيل رغائبه والابتعاد عن مخاوفه ، أي فالدعاء في تصورهم ليس أكثر من وسيلة لذلك .بل الدعاء عبادة مقصودة لذاتها يعلن بها الإنسان عن عبوديته وذله لله سبحانه وتعالى سواء تأمل استجابة أو لم يتأمل . إذ هو يعلم أن لا ملاذ له غير خالقه سبحانه وتعالى على أي تقدير وحال ، فلا ملجأ منه إلا إليه ولا مفر من بلائه إلا إلى الأمل برحمته ، ولا إله غيره يشكوه إليه أو يستعن به عليه أو يوسطه له . . إنما هو إله واحد بيده إسعاده وشقاؤه .

وإذا . . فهل يملك الإنسان إلا أن يتسربل بأصدق معاني الذل والضراعة لخالقه جل جلاله مهما كانت الحال التي هو فيها ؟

وهذا هو معنى العبودية لله عز وجل ، وذلك هو قصارى ما خلق الإنسان من أجله: أن يعلن لسان حاله وجميع تصرفاته أنه مملوك ذليل لخالق عظيم .

ومن أروع مظاهر الحكم الإلهية ، أنه سبحانه وتعالى يربي عباده على الاصطباغ بهذه الحقيقة ، بدافعين اثنين : أحدهما الأمل في رحمته ونعمائه ، وثانيهما الخوف من عذابه وبلائه ،وإنك لتجد دلائل كل من هاتين الصفتين في ذاته تعالى متكافئة متعادلة ، لا تغلب بوأرق أحدا هما على الأخرى ،حتى لا يتغلب جانب الأمل في رحمة الله تعالى على العبد ، فيترك نفسه لهذا الأمل ويتمنى على الله ما ليس له ، وحتى لا يتغلب جانب الخوف من بطشه وبلائه فيمتلكه اليأس ويرهب رهبة يلقي فيها بيديه .

وإنما يصلح العبد في طريق الاستقامة على العبودية لله عز وجل أن يتجاذبه طرفا الخوف والرجاء ، كجناحي الطائر ، في تكافؤ واعتدال . فمن أجل ذلك لا تجد في القرآن آية رحمة إلا وفي جانبها آية عذاب ، ولا تجد الباري سبحانه وتعالى يصف ذاته بصفة من صفات العطاء والرحمة إلا ويصف ذاته إلى جانب بما يقابلها من الصفة الأخرى.

انظر إلى قوله تعالى :و(نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) ، وإلى قوله عز وجل : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل

أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) وكل ما في القرآن من صفات الرحمة والعذاب لا يأتي إلا على هذا النمط من الموازنة التربوية المثلى .

بل إن القرآن لا يصف الذين استحقوا جنة الله وفوزه في دار العقبى إلا بأعلى صفاتهم ومراتبهم التي كانوا عليها كقوله تعالى : (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) فإذا تأملت في صفاتهم هذه قلت : أنى لي أن أكون في مراتب هؤلاء ؟ . وعندما يصف الذين استحقوا عقابه لا يصفهم إلا بأسوأ أعمالهم كقوله تعالى: (. . لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين) فإذا تأملت في صفاتهم هذه قلت : لا ريب أني أحسن حالاً منهم . وتنظر في حالك ،و إذا أنت في منزلة بين حال أولئك وهؤلاء .. فيطوف بك الأمل وينتابك الخوف ، ويتولد من تلك الحال حقيقة العبودية لله عز وجل ، ويدعوك ذلك إلى أن تبسط كفيك إليه بالضراعة والدعاء .

من آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) .

الحكم الذي تتضمنه هذه الآية ، هو النهي عن استثارة أصحاب المنكر . باسم الإنكار عليهم . إلى الوقوع في مضاعفات أو منكرات أخرى ، كأن يسب المؤمن ما يعبده الآخرون من دون الله من أوثان وآلهة أخرى ، فيعمد هؤلاء إلى سب الله تعالى بدافع من المغايظة والعصبية الجاهلة . فهذه الاستثارة لا تعتبر في حكم الشريعة الإسلامية من قبيل أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، وإنما هي ذريعة إلى الوقوع في محرم . وقد أمر الله تعالى بسد الذرائع إليها وإن بدت في ظاهر الأمر وأوله غيرة مبرورة على حرمات الله .

والحكمة من ذلك واضحة ، فإنما الغاية التي شرع من أجلها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إشاعة الحق في المجتمع وإزالة الباطل عنه بقدر الإمكان ، وذلك عن طريق النصيحة لدين الله عز وجل . وإنما يتم ذلك ضمن جو من الصفاء النفسي عن الأغراض والأهواء والضغائن ، وبأسلوب موضوعي يستهدف مخاطبة الفكر والعقل ولا يتجه إلى جرح الشعور والنفس ، وفي وقت لا يخشى فيه من الفضيحة والتشهير .

ففي هذه الحالة وحدها ، يشرع مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعامة المسلمين . أما في الحالات المخالفة الأخرى فأن التلبس بذلك لا يعدو أن يكون فتحاً لذريعة الشر في أي شكل من أشكاله ، وهو ما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى .

ومن أجل ذلك كانت ضرورة النظر في آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد من ضرورة اقتحام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كيفما كان السبيل ، بل كثيراً ما يكون هذا الاقتحام في حقيقة عند الله تعالى أشد من المنكر الذي يراد إزالته .

إن الذي يفجؤه منكر في طريقه أو عند جاره ، فينقض إلى إنكاره في غير الحالة والشروط التي أوضحناها ، فيستثير بذلك صاحب المنكر إلى الإيغال أو التمادي فيه ، إنما يتولى كبره في الحقيقة ذاك الذي زعم أنه سعى إلى إنكاره . فيرتكب بسبب ذلك إثم المشاركة فيه بعد أن كان مرجواً له الثواب والأجر على إزالته .

وأهم ما يجب على المسلم ملاحظته في هذا الصدد ، هو التفريق بين الغضب لله تعالى والغيرة لدينه ، والغضب للنفس وحب الانتصار لها . إن كثيراً ممن يريدون إنكار المنكر ينساقون إلى ذلك بدافع من الانتصار للنفس أكثر من دافع الانتصار لدين الله تعالى ، وهو دافع لا مخفى على الطرف الآخر فتكون نتيجة الاستكبار والعناد.

كم من أستاذ يرى من بعض تلاميذه منكراً دينياً يجاهر به أمامه ، فيستشيط غضباً ويتميز غيظاً إذ يشعر أن في ذلك جرحاً أو إساءة لمركزه الديني المرموق وأنه ليس إلا تعبيراً عن السخرية به والتهوين من شأنه ، فينحط في صاحب ذلك المنكر إيذاء وضرباً وينفذ فيه أعلى درجات الإنكار من أجل دين الله . . وهو في الحقيقة إنما يفعل ذلك من أجل نفسه ، ويعلم الآخر ذلك منه فلا يزداد إلا بغياً وعناداً .

وكم من ذي مظهر دين يرى في الشارع من يجاهر أمامه بالإفطار في شهر الصوم مثلاً ، فيذهب به الغضب كل مذهب ، إذ لا يشك أن الرجل إنما فعل ذلك مغايظة لمظهره الديني ، فيفعل كل ما يساعده الظرف على فعله . وهو لو لم يكن في هذا المظهر الديني ، وعلم أن صاحب المنكر لم يكن يعنيه في ممارسة منكره ، لما اهتم لذلك ولا التفت إليه .

مثل هذه الدوافع النفسية هي التي تجرف صاحبها إلى طريقة غير مشروعية ولا مجدية في الإنكار والتعليم ، فتكون بذلك ذريعة إلى شر أكبر ومنكر أعظم .

وعلى المسلم الصادق في إسلامه إما أن يسكت في هذه الحال فلا يتلبس بأمر يعلم أنه غير مخلص لله فيه ، وإما أن يعلو عن حظ النفس وأغراضها فيسلك إلى ذلك سبيله المنتج المشرع غير عابئ بشيء سوى الانتصار لدين الله تعالى .

وهذه الآية . ومثلها كثير في القرآن . هي التي نبهت علماء الشريعة الإسلامية إلى أساس تشريعي عظيم هو ما يسمى بمبدأ " سد الذرائع " .

التحلي بالذهب

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل ، فنزعه فطرحه ، وقال : يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده ؟ . . فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : خذ خاتمك انتفع به ، قال لا والله لا آخذه أبداً ، وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وراه مسلم .

هذا الحديث واحد من الأحاديث الكثيرة الصحيحة التي تدل على حرمة تحلي الرجل بالذهب . ولئن كان هذا الحديث ينص من ذلك على خصوص التختم ، فغيرة مثله في الحرمة ، إذ الفرق بين التختم وغيره ساقط في الاعتبار ، وليس لخصوص التختم أي أثر في التحريم .

أما المرأة فقد أجمع جمهور العلماء ومنهم الأئمة الأربعة على جواز ذلك لها إذ يزد على حاجة الزينة عرفاً ، فإذا زاد عليها ففيه خلال لبعض الأئمة ، وقد روى الترمذي والنسائي في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أحل الذهب والحرير للإناث من أمتي وحرم على ذكورها . قال الترمذي : هذا حديث حسن وصحيح .

ولسنا هنا بمعرض التطويل في أدلة هذا الحكم وتفصيل القول فيه .

ولكنا بمعرض بيان الحكمة من هذا الحكم الذي اتفق عليه أئمة المسلمين .

فيم حرم الذهب على الرجال ولم يحرم عليهم ما هو أثمن من الذهب كمختلف أنواع الجواهر الأخرى ؟

والجواب أن الله عز وجل جعل الذهب قيمة للمنافع والأعيان في مختلف الأزمنة والأمكنة ، ومهما تنوعت الأثمان في الظاهر فلا بد أن تعود إلى الذهب في الحقيقة . فقد خلقه الله عز وجل لتتداوله الأيدي ويكون حاكماً بين الأموال بالعدل ، وليتوسل به الناس إلى سائر الأشياء الأخرى ، وقد هيأه لذلك أنه عزيز في نفسه ولا غرض لهم في عينه .

فاتجهت جهود الناس كلهم من جراء ذلك إلى السعي لحيازة ما أمكن من هذه القيمة الذاتية للأشياء ، كل يسعى إلى ذلك بما يمكن طرحه في المجتمع من منافع ومقومات مختلفة . وبذلك دارت عجلة التعاون والخدمات الإنسانية بين الناس ابتغاء بقاء الحياة ونموها وتطور أسباب العيش فيها .

فكان مقتضى ذلك أن لا يحبس الذهب عن التداول حتى لا يضيق سبيل الحصول عليه فيضيق على الناس أسباب معايشهم وإنما يكون حبسه عن الناس بوساطة تجميده حلية للزينة أو متاعاً من أمتعة البيوت أو نحو ذلك.

والضرر الذي هو أبلغ من هذا ، ما يترتب عليه من إنكسار قلوب الفقراء إذ يرون سبائك الذهب أو الفضة في بيوت الأغنياء وقد أقيمت مقام ما يمكن أن يؤدي النحاس أو الخزف أو نحو هما من حفظ الطعام والشراب ، أو اتخذت معالم للزينة المجردة ، في الوقت

الذي يبذل كل منهم غاية جهده وعصارة قوته لنيل جزء يسير منهما من أجل أن يتوسل بهما أو بأحدهما إلى طعام يشبعه أو كساء يلبسه أو مسكن يؤويه !.

ومن هنا لم يكن لبقية الجواهر الثمينة الأخرى كاللؤلؤ والألماس " والبلاتين " ما للذهب والفضة من حكم التحريم إذ ليس شيء من هذه الجواهر قيماً للأشياء وأساساً لتبادل المنافع ، ومن ثم فليس في استعماله ما يسبب ذلك المعنى الأليم في قلب الفقير ، وليس له أي مطمع خلال جهده الكسبي للحصول على شيء منه .

وقد ساق الإمام الغزالي في هذا الصدد قول الله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) . ثم قال : وكل من اتتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالاً ممن كنز ، لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة والمكس والأعمال التي يقوم بها أخساء الناس ، والحبس أهون منه[1] .

وقد كان من مقتضى هذه الحقيقة أن يحرم استعمال الذهب على الرجال والنساء معاً ،ولكن لما كان الذهب إلى جانب ماله من الخصيصة التي ذكرناها مظهراً من أبرز مظاهر الزينة ، وكانت المرأة بفطرتها وطبيعة تكوينها سبباً من أسباب متعة الرجل وإسعاده لم يكن في تزينها به بالقدر الذي لا يأباه العرف والذوق الإنساني ما يخالف القانون الذي ذكرناه وواضح أن هذا المعنى لا يرد في حق الرجل بشكل من الأشكال .

فإذا تجاوزت المرأة في استعمال الذهب حد الزينة التي ذكرناها ،استوت هي والرجل في حكم الحظر والتحريم .

الكاسيات العاريات

عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها . وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا . رواه مسلم وأحمد . اللفظ لمسلم .

ينص هذا الحديث على أن صنفين من الناس حق عليهما العذاب في نار جهنم يوم القيامة . أما أحدهما فالحديث عنه مكرر معاد ، وهو صنف معروف يشير بذاته إلى نفسه . . صنف من الظلمة يرمز إلى ظلمهم سياطهم التي في أيديهم ، وعملهم الذي يذهبون ويجيئون به إلى الناس . وليس لنا غرض في الحديث عنهم في هذا المقام .

وأما الصنف الآخر ، فنساء من نوع عجيب ! . لم يرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه أخبر بهم وأوحي إليه بشأنهم . إن لبسن الثياب فليزيد ذلك كشفا عن دقائق الفتنة في أجسامهن . فلسن عاريات لأنهن يتجملن بالثياب ، ولسن كاسيات لأن كسوتهن أبلغ تعبير مثير عن العري الذي لا تتمتع به العاريات ! . . تميل الواحدة منهن إلى الرجل بفنها لتميله إليها بأنوثته وعريها ! . . وقد أقمن من الشعر المتجمع فوق رؤوسهن سناماً مثل سنام البعير يتأملن به مزيداً من الفتنة أو التنبيه ! . . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن : لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا ! .

أما إعجاز الحديث ، وكشفه عن هذه الخارقة الغيبية التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أربعة عشر قرناً من حدوثها ، كما حدثت فعلاً ، فليس مجال حديثنا فيه . وقد فرغ الباحثون جميعاً من البحث في عظمة هذا الحديث ومدى دلالته على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه إنما كان ينظر من مشكاة النبوة إلى كل ما يحدث أو يتطور مع الزمن .

وأما الحكمة من هذا الوعيد الشديد ، فتلك هي مجال بحثنا المختصر في عرض هذا الحديث .

الحكمة من هذا الوعيد ، أن التي تخرج من بيتها على هذا الحال ، إنما تبذل جميع ما في وسعها لإقناع من يرونها من الرجال بأن " زوجة الشارع "[2] خير وأولى من زوجة البيت ، وأنها أتم منها متعة وأفضل منها زوجة ! .

---

[1] احياء علوم الدين: ٤/٩٢.

فلئن كانت " زوجة الشارع " هذه إنما تبرز مفاتنها ، وتكشف عن معالم المتعة من جسدها لمجرد العرض والإثارة ، فإنه السم بذاته تصبه ناقعاً في حياة كل رجل متزوج مع زوجته أو شاب أعزب مع نفسه ، وإنه لأخطر مظهر من مظاهر الكبت الذي يحذر منه المربون والنقاد الاجتماعيون .

ولئن كانت لا ترديد لامس يبغي الاستمتاع بها ، فإنها النار التي تذيب قوالب الأسرة وتتلف معالمها ، ولا معنى بعدها للحديث عما يسمى بالشرف ، أو التباهي بالنسب أو التفاخر بالكرامة والعرض .

فهما احتمالان ، لا ثالث لهما . وأحلاهما بلاء هائج مرير ! .

ولما كانت شريعة الله عز وجل ، تريد للإنسان حياة هانئة تتوفر له فيها طمأنينة قلبه وسكينة نفسه وسعادة عيشه ، في غير مداجاة ولا تصنع نفاق . فقد كانت قائمة في هذا الأمر الخطير على القانون الإلهي القائل :

(يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) الأحزاب : ٥٩ .

ومن أجل ذلك كانت المرأة أو الفتاة التي تعرض عن هذا القانون الإلهي العظيم ، ثم تقتحم المجتمع لتحاربه بسلاح من الإثارة والفتنة والتعري ، إنما تهيئ نفسها بذلك لاقتحام نار هائلة لا تعرف نار الدنيا مدى هولها وحرارتها ، نار وصفها خالقها بأن وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ! .

فيا أيتها الأخت الرشيدة :

إن كنت تؤمنين بوجود الخالق الذي يلزم عباده بهذا القانون وبالنبي الذي أخبر عن هذا الصنف من النساء بأنهن لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها . فاحذري معاندة الخالق في القانون الذي ألزمك به ، ولا ينزعن بك الجمال الموقوف والشهوة الرعناء إلى اقتحام مهلكة سرعان ما تندمين على اقتحامها ولن يغنيك الندم إذ ذاك شيئاً . سيذهب الجمال ويترك لك من آثاره شيئاً واحداً : غلاً ثقيلاً تقادين فيه إلى النار . أعيذك أن تغضبي رب الأرباب وخالق الجنة والنار ، في سبيل أن تشبعي شهوة زائلة أو تخضعي للذة فانية . أعيذك أن تجعلي من جسدك الهائج العاري مزلقاً تنزلق منه أخلاق الرجال ويضيع فيه رشدهم ويقعون منه في وادي الغواية والضلال ، وإذا أنت بعد قليل تحملين على ظهرك بين يدي الله عز وجل أوزار جيل من الناس كانوا سعداء باتباع مرضاة الله ، فانقلبوا بسببك أشقياء بما سلكوا من سبيل سخط الله . أعيذك أن تحيلي أجمل نعمة من الله لها عليك ، إلى سلاح تضعينه في يد أعداء دين الله تعالى كي يسلكوا به أقرب طريق إلى اقتناص خلق الإسلام في شباب المسلمين ، وإذا بهم صرح هائل تهاوى وسور غليظ تحطم . أعيذك أن تنخدعي لوسواس جنوبي كاذب هو : أن الفتاة الجميلة لا تعثر على الزوج الذي تحلم به إلا على المسرح الذي تتعرى فيه !. كذب والله من قال لك هذا الكلام . وإذا شئت الدليل فانظري إلى الواقع الذي ترين أنظري تجدين الفتاة المتحصنة بستر الإسلام وخلقه أسرع إلى الزواج من سرعة السيل إلى منحدره بمقدار ما تجدين الأخرى أقرب إلى الضياع أو الشقاء أو البوار.

هذا كله إذا كنت تؤمنين بالخالق الذي ألزمك بقانون الستر والاحتشام .

أما إذا كنت لا تؤمنين ، فأني أنصحك نصيحة أخ لا يبغي لك إلا الخير الذي يبغيه لنفسه : عليك أن تسرعي فتعيدي النظر إلى ما تعتقدين ببحث موضوعي متحرر نزيه ، فأن خادعاً ما قد خدعك عن الحق ولبس عليك في أمره وشأنه .

أسرعي لتنتبهي إلى الحق الذي خدعوك ، عنه ، قبل أن يسرع إليك ما ينبهك إليه بعد فوات الأوان ، وزوال الفائدة من التنبه والاعتقاد والإيمان .

---

[2] "زوجة الشارع" تعبير اطلقناه على تلك المرأة التي اذا خرجت الى الشارع تعرت وازينت وتمرغت على طول شارعها كما تتمرغ الزوجة في احضان زوجها. فاذا عادت الى البيت طوت زينتها واهملت زخرفها وجلست فيه شعثاء لانها في اليت .. وما في حدا غريب!.